885.6:Q614dA

قلعجي

885.6
Q614dA

DATE DUE

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY
AS
885.6
Q614dA
c.1

قدري قلعجي

ديموستين

بطل اثينا

78181
Cat. Jan. 52

اعلام الحرية ١٠

LIBRARY
OF BEIRUT

دار العلم للملايين

آذار ١٩٤٨

قليل من التاريخ

●

إذا ذكرت يونان ذكر الجمال والفن والحكمة، في عهدٍ قصيٍّ من عهود التاريخ، انتهت فيه الحضارة إلى هذا القطر الصغير من أقطار أوروبا، ثم بدأت فيه سيرة جديدة بروح جديدة كانت وما تزال أساساً راسخاً للمعرفة البشرية ..

ويونان هي إحدى أشباه الجزائر الثلاث الواقعة في جنوب القارة الاوربية، على شواطىء البحر المتوسط .. وقد كانت منذ القدم موطناً للقبائل العاملة النشيطة، فنشأت في القسم الشمالي منها بلاد تساليا ومملكتا ابيرة ومكدونية اللتـــان لم يكن سكانهما من اليونانيين الأصليين . وتألفت في القسم الأوسط لوقريدة، وبيوتيا الواقعة حول بحيرة كوبايس وكانت قاعدتها مدينة ثيبة، وفوقيدة التي تضم مدينة زلفى المقدسة ووادي دوريذة العميق الواقـع بين جبل اوتيا وجبـــل بارناس ومن هنا كان أصل الأسبارطيين، وايطوليا وهي ذات الشعوب الخشنة الجفـــاة، واقرنانيا ذات الأراضي المحصاب، واتيكة وقاعدتها أثينا التي بزغ فيها نور المدنية وانتشر منهـا في كل أفق . أمّا القسم الجنوبي فكان يضم شبه جزيرة بيلو بونيسة التي سميت أواسطها ارقاديا، تحيط بهـا اخائية

واليزة ومسينيا ولاكونيا وارغوليزة وكورنثية وسكيونية .

وكان قسم من ابيرة يدعى اغريقيا، فما زال النطاق الذي يعنيه هذا الاسم يتسع شيئاً فشيئاً، حتى اطلق على تساليا والبلاد الواقعة في جنوب ترموبوليس وبيلوبونيسة، ثم على ابيرة وايليزيا وابيدامية، ثم على مكدونية أيضاً . أما اليونانيون وكانوا ، قبل أن يسموا اغريقيين ، يدعون أنفسهم هيلانيين نسبة إلى جدتهم هيلانة ، ويسمون بلادهم هلاّدة . وهم يقسمون إلى أربعة أسباط الاخائيين والايونيين والدوريين والايوليين ، مرتبطة ، برغم خصومتهم وتنافسهم الدائمين، بروابط اللغة والدين والتاريخ والمصالح المختلفة، حتى أنهم كانوا يعدّون أنفسهم أعضاء اسرة واحدة تزهو بأصلها وتعتدّ بعبقريتها ، ويسمّون جميع الغرباء عنهم برابرة .

وقد امتزج تاريخ يونان القديم بالاسطورة امتزاجاً عميقاً ، لكثرة ما وضع كهنتها وشعراؤها ومؤرخوها وأفراد الشعب أنفسهم من خرافات عن ذلك العهد السحيق ، وما نسبوه لأسلافهم من خوارق ومعجزات ...

ففي تلك الاساطير التي نظمت بأروع بيان وأصفى لغة نطقت بها الشفاه البشرية ، أن الحضارة قد انتشرت في اليونان بفضل نفر فدّ من الشرقيين الذين هاجروا إليها في عهود قصيّة من التاريخ ، وفي طليعتهم سكروبس الذي قدِمَ من مصر حاملاً معه فنون وادي النيل وعلومه وبنى سكروبيا التي أضحت فيما بعد حصن اثينا الشهيرة ، وقدموس الذي جاء من فينيقية فأسس مدينة طيبة وعلم أهلها حروف الهجاء ، ودناؤوس الذي

هرب من مصر لحماقة ملكها أخيه ايجيبتيوس وسكن في ارغوس . وهناك من يعتقد ان هؤلاء المهاجرين لم يكونوا شرقيين ، ولكن ليس من ينكر ما كان للحضارة المصرية والفينيقية والبابلية من أثر في حضارة الاغريق .

وتصور هذه الاساطير أسلاف اليونانيين أبطالا من سلالة الآلهة او أشباه الآلهة ... وأعظم هؤلاء الابطال شأناً هرقل الذي قام باثني عشرة مأثرة فوق طاقة البشر ، ثم رُفع في جذوة مشتعلة الى موطن الآلهة الخالدين . وسكروب الذي يحبه الاثينيون خاصة لانه كان احد ملوكهم البارعين ، ومن اعماله الفذة ذبح مينوتور الوحش الهائل الذي كان يُطعم الشبان والصبايا من ابناء اثينا ، وانتصاره على الامازون وتوحيده مدن اتيكة وقراها الاثني عشرة . ومينوس ملك كريت ، واضع الحكمة الالهية ، ومخضع لصوص البحر ، ومؤسس الدولة العظمى الاولى في هلاّدة ، وقد بلغ من عدله واستقامته ان جُعل قاضياً لابناء الجحيم . وبرومیته الذي أراد ان يقتدي بجوبيتر رب الأرباب ويتمم خليقة العالم ، فسرق شهاباً ناريا من السماء فحلّ الذكاء في دماغه ، وشرع في استنباط الفنون ، وأصبح اولاده خصوماً للآلهة ، فسخط جوبيتر على البشر وصب على برومیته عذابه الاليم ...

ومن تلك الاساطير ان ياسون احد امراء تساليا ، قد أقلع مرةً في سفينة ذات خمسين مجذافاً اسمها ارغو ، مع خمسين بطلاً من رفاقه بينهم هرقل وتيسو واورفه الذي بلغ من مهارته الموسيقية ان الحان قيثاره كانت ترقص الاشجار والحجارة .. وانطلقوا

جميعـــاً في عرض اليم ، للبحث عن السلخ الذهبي المسمّر بشجرة يحرسها تنين في أجمة على شواطىء البحر الاسود الشرقية ، ثم عادوا ظافرين ببغيتهم ، بعـــد ان جابهوا الاهوال وظهروا على جميع الاخطار التي عَرَضت لهم .

ولكن أروع أساطير يونان ما بني حول حروب طروادة ، فقد كانت طروادة واسمها اليوس مدينة حصينة في آسيا الصغرى جنوبي هلسبونت (الدردنيل) فزار ملكها باريس بن بريم ، منيلوس ملك اسبارطة ، فأحب زوجته هيلانة ذات الجمال الساحر النـادر المثال ، وأحبته هذه وهربت معه الى بلاده ، فهبّ جميع الابطال اليونانيين للانتقـام من منيلوس ، وكان على رأسهم اغاممنون ملك مسينية ، وتحت امرته اخيل الاسد التسالي ، واوديسيس الداهية ملك ايثاكا ، ونسطور البطل الحكيم .. فحملتهم الف ومائتـا سفينة الى سواحل طروادة ، فحاصروها عشر سنوات ، ونشبت بينهم وبين اهلها معـــارك عظيمة ، ثم افتتحوها بمكيدة حربية فنهبوها واحرقوها .

وآخر اساطيرهم ما يشير الى هجرات فريق من اليونانيين من بلادهم الاصلية الى شواطىء آسيا الصغرى والجزائر المجاورة لها ، واقامة الابوليين منهم في تخم آسيـــا الصغرى الشمالي الشرقي ، والايونيين في جنوبهم ، واتحاد هؤلاء مع انسبائهم الذين كانوا قد سبقوهم الى الاستيطان على الشواطىء ، واشادتهم اثنتي عشرة مدينة اتحدت جميعاً وألفت ما عُرف بالاتحاد الايوني ، واستيطان الدوريين جنوبي الايونيين واستيلائهم على جزر خيوس ورودس وكريت .

وبأنباء هذه الهجرات ينتهي عصر الاساطير اليونانية ،ويبتدىء التاريخ المعوّل عليه حوالي القرن الثامن قبل الميلاد ..

وينقسم التاريخ اليوناني منذ هذا العهد الى عصور ، اولها عصر الاستعمار (٧٥٠ – ٦٠٠ ق. م.) وقد اسست فيه المستعمرات اليونانية العديدة في الشرق والغرب ، وكان الباعث على تأسيسها ازدهار التجارة اليونانية من ناحية ، وهجرة كثير من اليونانيين من بلادهم هرباً من جور الاشراف والظالمين من ناحية اخرى . ومن اهم المدن التي بناها اليونانيون في مهاجرهم مدينة خلكيدية في جزيرة يوبيا على مقربة من الساحل المكدوني ، ومدينة بيزنطة المعروفة الان باسم استانبول ، ومدينة مليتوس في اقليم البحر الاسود الذي كان من احسن الاراضي لاقتناص الرقيق ... ومدن تاراس وسيبارس وكيمي جنوبي ايطاليا ، ومدينة سيراكوس في صقلية ، ومساليا التي تعرف الآن بمرسيليا في جنوب فرنسا ، ونوكراتس في مصر ، وقيروان في شمال افريقيا . وقد اطلق اليونانيون اسم هلاّدة على جميع هذه البقاع !

ويليه عصر الاستبداد (٦٥٠ – ٥٠٠ ق. م.) أو عصر الطغاة ، وقد اطلق هذا الاسم على بعض الملوك المستبدين لانتزاعهم السلطة من ايدي الاشراف ، كما انتزعه هؤلاء قبلهم من أيدي الملوك الذين كانوا يحكمون اليونان سابقاً بنظام الملكية الأبوية . وليست تعني كلمة الطغاة او المستبدين هنا ، الظلم ، بقدر ما تعني الاستئثار بالحكم دون شرع معروف . وقد كان الزمن الذي حكم فيه هؤلاء الحكام الفرديون قصير المدى ، لمقاومة الشعب اليوناني ونضاله

المستمر في سبيل حريته ، حتى اصبح اليونانيون يعدّون قاتل الطاغية أعظم الوطنيين بطولة وأفضلهم عملاً .

وفي ذلك العهد كانت مقاطعة اتيكة من اشهر مقاطعات اليونان ، وهي بقعة صغيرة تقع في شمال شرقي بيلو يونيسه ، ذات رؤوس داخلة في بحر ايجه ، ويحدها من اليمين جزيرة اوبه ، ومن الشمال جزيرتا سلامينه وايجينه ، وتتألف من ثلاثة سهول : اثينـــا وأنديس وماراتون .

ونحن اذا نظرنا الى أتيكا في ذلك العهد ، وخصوصاً الى قاعدتها أثينا ، نجدها منصرفة الى وضع أنظمتها السياسية والاجتماعية بصورة تكفل لها التقدم والازدهار . فان اثينا كانت قـــد أبطلت سنة ١٠٥٤ ق.م. نظام الملكية ، وقلدت أحكامها الى قضاة يُدعون أواخنة كانوا يحكمون بادىء الامر حكماً مؤبداً ، ثم حدد حكمهم سنة ٧٥٢ بعشر سنين ، ثم جُعل سنة ٦٨٣ عاماً واحـداً ، ونصب الاثينيون تسعـــة منهم كان الحكم بينهم متساوياً لاضعاف سطوة الحكومة واستبداد الحكام . غير أن هذه الطريقة ان كانت قـد أضعفت نفوذ الحكام واستبدادهم الى حـد كبير ، فانها لم تستطع حفظ الأمن واقرار النظام ، لان القضاة الاشراف الذين يتولون وحدهم زمام الاحكام ، كانوا يفسرون الشرائع لمصلحة أهل طبقتهم ، فطلب الشعب أن تدون تلك الشرائع وتنشر كي يعرفها كل انسان ، فعين الاشراف واحداً منهم يدعى دراكو لتدوينها ونشرها رغبة في تهدئة الشعب الغاضب ، فعـــدّل دراكو في الشرائع السائدة وأضاف اليها ما يلائم أهل طبقتـه ، فجاءت على أقسى ما يكون

بالنسبة الى عامة الشعب ، حتى قال أحد الخطباء المتأخرين في وصفها انها كتبت بالدم لا بالحبر ، إذ بلغ من قسوتها أنها جعلت الاعدام جزاء لأقل سرقة !

ثم ظهر الحكيم الشاعر صولون ، فأحبه الشعب وعهد اليه سنة ٥٩٥ بسن شرائعه ، فوضع عدة قوانين أهمها القانون الذي يحظر على الدائن الاستيلاء على شخص المدين إذا عجز عن وفاء دينه ، فحرر بذلك كل عبد كان الدين سبب عبوديته ، ومنها أن كل من ثبت عليه ثلاث مرات أنه بلا عمل يُشهّر به ، ومن يسكر من الحكام يُقتَل ، ومن مات في الحرب وله أولاد فعلى الحكومة تربيتهم والقيام بنفقتهم ، وللعبد المهان عند سيده الحق في أن يطلب بيعه أملا بالحصول على الراحة عند غيره . وقسم صولون الامة إلى أربع طبقات بالنسبة إلى ثروة كل منها ، خص وظائف الدولة بالطبقات الثلاث الاولى ، وأعفى الطبقة الرابعة المدقعة من الضرائب ، وأنشأ مجلساً سماه السناتو يتألف من أربعمائة رجل ينتخبهم الشعب كل سنة ، فيسنون الشرائع ويعرضونها على مجلس الشعب لتصديقها أو رفضها ، وأناط بالاراخنة التسعة تنفيذ هذه الشرائع ، وجعلهم مسؤولين أمام الشعب الذي لم يعد حقه مقتصراً على انتخابهم بل أصبح يحاكمهم على ما يرتكبونه من الجور .

وحل محل صولون في سن الشرائع قريب له يدعى بيزستراس ، ما لبث أن استولى على الحكم واستبدّ به من سنة ٥٣٨ الى سنة ٥٢٨ ق.م ، غير أنه شجع العلوم والصنائع ، وقام بمشاريع عمرانية لتجميل المدينة ، وأسس فيها أول دار للكتب في بلاد اليونان .

وكانت أناشيد الالياذة والاوديسة غير معروفة الى ذلك الحين إلا من جماعة الراسبود الذين كانوا يطوفون في أنحاء اليونان متكسبين بانشادها ، فجمعها بيزستراس لاول مرة في كتاب واحد .

ولما توفي بيزستراس خلفه ولداه أبرخس وهبياس ، وحكما مكانه ، فقتل أبرخس وخلع الشعب هبياس سنة ٥١٤ لشدة ظلمه ، وأقام الحكومة الجمهورية . ومن أروع ما يروى عن المقاومة الشعبية التي لاقاها هبياس ، أنه ألقى القبض على لانا حبيبة ارستوجيتون أشدّ خصومه نقمة عليه ، وعذّبها عذاباً أليماً ، كي تدله على شركاء حبيبها ، فقطعت لسانها بأسنانها وبصقته بوجه الظالم إصراراً على الصمت ، فأقام لها الأثينيون تمثالاً بهيئة لبوة بلا لسان ، وأقاموا تمثالين آخرين لأرستوجيتون ورفيقه هرمديوس اللذين قتلهما الظالم ، ووضعوا انشودة كانوا يترنمون بها في الأعياد ، فيقولون : « يا عزيزي هرمديوس .. أنك لم تمت .. ولا ريب أنك في الجزائر الطوباوية حيث يحيا اخيل وديوميدوس . انني سأحمل السيف بين غصون الآس ، كما فعل هرمديوس وارستوجيتون لما قتلا الظالم وأقرّا في أثينا شرعة المساواة » .

واستولى على الحكم بعد ذلك كليثينيس الذي انتصر للشعب على الأشراف ، وألغى امتيازات الاسر الأربع القديمة التي انحصر فيها النفوذ السياسي ، وزاد عدد أعضاء مجلس السناتو إلى خمسمائة عضو ، وابتدع نظام النفي ، فأصبح الناس يقترعون في المجلس الشعبي العام على نفي كل من ارتابوا به أو كرهوه ، فمن افترعت أكثرية المجلس على نفيه لم يعد يحق له الاقامة في أثينا لمدة عشر

سنين . ولكن أهم ما عمله كليثينيس منحه الرعوية الأثينية لجميع سكان اثينا الأحرار ، إذ غيّرت هذه المنحة القانون تغييراً ذا شأن لمصلحة الشعب الذي كان قسمٌ كبير منه محروماً هذه الحقوق ، حتى ذهب كثيرون إلى القول بأن كليثينيس ، وليس صولون ، هو مؤسس الديموقراطية الأثينية .

وفي هذا العهد اشتبكت أثينا في حرب مع البيوتيين والخلكيديين ، وانتصرت عليهم ، واستولت على قسم من اوبة . وكانت سبارطة تنافس أثينا ، وقد اتحدت مع أهالي جزيرة ايجينة ، فتخوّفت أثينا من هذا الاتحاد ، وأنشأت سفناً حربية قادها ملتيادس العم وافتتح بها شبه جزيرة تراقة ، فاتسع بذلك نفوذ أثينا ، وتعددت ممتلكاتها ، وضارعت عظمة سبارطة .

والحق ان سبارطة كانت قد سبقت أثينا إلى الظهور والتفوق ولكن في مضمار آخر . فقد سنّ الحكيم لكورغة لهذه المدينة في القرن العاشر قبل الميلاد ، شرائع ابقت على النظام الملكي فيها ، وأسندت السلطة إلى مجلس الشيوخ ، وتركت للشعب الكلمة الفاصلة في قبول الشرائع التي يقدمها المجلس أو رفضها . وأراد هذا الحكيم أن يقرّ المساواة بين مواطنيه ، وكانوا تسعة الاف شخص ، فقسم الأراضي تسعة آلاف جزء ووزعها عليهم ، وحرّم بيعها ، وألغى المتارف كلها ، وأرغم الأهلين على التدرب العسكري والقيام بالتمرينات الرياضية ، ليكونوا على استعداد دائم للنضال في سبيل وطنهم ، كما وضع تمرينات خاصة بالنساء وبالاطفال ، وجعل هؤلاء تابعين للدولة اكثر

من تبعيتهم لأبويهم . فأصبح الاسبارطيون أقوى اليونانيين بنية ، وأقدرهم على حمل السلاح ، وأمهرهم في الحروب ، واكثرهم جَلداً وتحملاً للمشاق. ولكنهم اشتهروا الى جانب ذلك باحتقارهم الصناعة والتجارة وقلة اهتمامهم بالعلم والفلسفة ، والركون الى البطالة وعزف القيثار ، واسناد أعمالهم الى عبيدهم وخدمهم ، مما أفقدهم الفطنة والنباهة والذكاء المتقد التي كانت من سجايا الأثينيين .

وقد خاضت سبارطة حروبا عدة استولت فيها على كثير من المدن اليونانية ، حتى امتد نفوذها سنة ٥١٤ الى أبواب ارغوس ، وفي سنة ٤٩١ شنت الغارة على افريقية ، واستولت على كثير من الموانيء والجزائر في البحر المتوسط ، وأصبحت صاحبة النفوذ الاول في هذا القسم من العالم ، وذاعت شهرتها في آسيا حتى أراد اكرزيوس ملك فارس التحالف معها وكان يسميها الشعب اليوناني الأول .

والى جانب هاتين الدولتين البارزتين من دول اليونان : اثينا وسبارطة ، كانت تعيش دول اخرى كثيرة العدد ، منها المستقل الذي يعيش في عزلة عن بقية المدن اليونانية ، ومنها المحالفة لاسبارطة او لاثينا ، او المعادية لهذه او لتلك ، واشهرها مقاطعة ارغوليس التي تعدّ مهد التمدن فيما قبل التاريخ وفيها اطلال مدينتي ميسينيا وتيرنس العظيمتين وعاصمتها ارغوس التي اشتهرت قبل سبارطة واثينا ثم زالت شهرتها واندثرت عظمتها . ومقاطعة تساليا التي ينتصب على تخومها الشمالية جبل الاولمب الشهير الذي يبلغ ارتفاعه نحواً من ٩٧٠٠ متر وكان اليونان يعتقدون انه أعلى جبال

العالم وان قمته التي تناطح السحاب موطن الآلهة . ومقاطعة اليزة الخصبة التي اشتهرت بالمباريات الرياضية وبهيكل الاولمب ، وكانت أرضها تعد مقدسة قد حرّم القتال فيها . ومقاطعة بيوتيا وعاصمتها طيبة منجبة بندار الذي قيل انه أعظم الشعراء الغنائيين في كل عصر وأمة .

مجد أثينا

ظلت التجارة والهجرة تنشطان في اليونان ، في خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، حتى ساد شعبها جزر البحر المتوسط وشواطئه ... ولكن لم يكد ينتصف القرن السادس ، حتى وقفت الامبراطورية الفارسية في وجه هذا التقدم ، واستطاعت ان تفرض سيطرتها على المدن اليونانية في الساحل الاسيوي ، فخسر العالم اليوناني دفعة واحدة جميع شواطىء بحر ايجه مهد الفنون الاغريقية ، وامتد سلطان الفرس الى فينيقية وقبرس ومصر والمستعمرات اليونانية في شمال افريقية ، واستولوا على جميع السفن والاسلحة التي فيها .

وفي سنة ٥١٣ حشد داريوس جيشاً لجباً من الفرس وغزا به اوربا واستولى على تراقية ومكدونية والجزائر المنتشرة في شمال بحر ايجه ، فأضحى هذا البحر الذي كان ميداناً لنشاط التجارة اليونانية بحيرة فارسية .. وأصبحت امبراطورية داريوس متاخمة لحدود اغريقية الشمالية .. وبات العالم اليوناني في خطر كبير ربما أدى الى زواله ..

وفي الواقع ان هذا الخطر لم يلبث ان أطبق على اليونان وكاد

يقضي عليها ، حين نشبت الحروب التـــاريخية الشهيرة بالحروب الفـارسية ، وكان الحافز الاول لنشوبها ثورة ايونيا على استعباد الفرس سنة ٥٠٠ ق.م. ، ومساعدة الاثينيين لها مساعدة فعالة أثارت غضب داريوس ، فأمر باخضاع الثائرين والانتقام منهم ، فانقضّت الجيوش الفارسية على مدن ايونيا وجميع المدن اليونانية القائمة على الجانب الاوربي من الدردنيل ، فسُلبت وأحرقت وسُبي نساؤها وشبانها وسيقوا الى ما وراء الفرات ليكونوا عبيداً للملك الكبير..

واستمرت الغزوات الفارسية على بلاد اليونان حتى سنة ٤٩٠ ، فلم تصمد في وجهها غير سبارطة واثينا ، بل لقد استطاع الاثينيون ان ينتصروا على الفرس في معركة ماراثون التي تعد من المعارك الفاصلة في التاريخ ، لانها كانت فاتحة عهد الحرية البشرية التي ما فتئت تتابع كفاحها الظافر منذ ذلك الحين ... إذ أن اثينا التي انقذت نفسها من الاستعباد في تلك الموقعة الحاسمة ، قد انقذت معها المدنية من البربرية ، ومهدت السبيل لنشوء الحضارة الاغريقية الـــتي وضعت دعائم الحضارة العالمية ونمت في تربتها الخصبة اعظم بذور الفكر .

وراحت كل من أثينا وفارس ، تستعد وتتحفز للمعركة القابلة ، ولم تكن قوة أثينا ، وهي تلك البقعة الصغيرة من الارض ، لتؤهلها للوقوف بوجه الامبراطورية الفارسية العظيمة التي يمتد سلطانها من وراء الفرات الى شواطيء اوربا ، ولكن شغفها بالحرية ، وإيمانها بالحق وما أثاره فيها انتصار ماراثون من زهو مشروع ، قد نفخت فيها قوة روحيـة جبـــارة ، فاستطاعت أن توحّد بعض الدول

اليونانية، وتقاتل معها سنة ٤٨٠ جيوش زركسيز الذي خلف أباه داريوس، في معركة ثرموبولي التي استشهد فيها عدد كبير من الهيلينيين قدّسهم مواطنوهم وأنزلوهم المنزلة العليا بين أبطال أمتهم ... وقد أدت هذه المعركة إلى احتلال مدن أتيكا وعاصمتها أثينا وإحراق قسم كبير منها، ولكن أهلها كانوا قد جلوا عنها ولجأوا إلى اسطولهم ... فلما هاجمهم زركسيز في البحر، انتصروا عليه، واضطروه إلى الهرب بقسم من جنوده، وإبقاء قسم آخر.. ثم وطدت هذا الانتصار معركتان أخريان هما معركة بلاتيا ومعركة ميكالى اللتان اكتمل بهما انتصار اليونان وتحررها من احتلال البرابرة ...

وعاد الاثينيون إلى مدينتهم فوجدوها أطلالا، فنشطوا جميعاً إلى تجديد بنائها، وحصنوها تحصيناً قوياً، ثم ألّفوا حلفا قوياً من المدن اليونانية في أتيكا وأيونيا وأيولس الآسيوية وجزائر بحر ايجه وخلكيديا وسواحل البوسفور والدردنيل. ولم يُحرم من هذه المحالفة غير سبارطة وحلفائها البيلو بينيسيين لخيانة بدرت من أحد أبنائها في موقعة ثرموبولي. وانشيء مجلس نيابي عام لجميع هذه الولايات المتحالفة يدعى الأمفيكتون يجتمع أعضاؤه مرة في السنة برئاسة أثينا. فكان لهذه المحالفة التي عُرفت باسم محالفة ديلوس (٤٤٧ ق.م.) شأن عظيم في تاريخ اليونان، إذ أنها أحلّت أثينا محل سبارطة في قيادة البلاد اليونانية.

وفي الحق ان أثينا ما لبثت أن جعلت من هذه المحالفة أساساً لبناء دولة امبراطورية حوّلت حليفاتها إلى أتباع لها، وفرضت

عليها الجزية ، وجردتها من سلاحها ، وانصرفت هي إلى تقوية اسطولها وزيادة معداتها ، فأصبحت « مدينة طاغية » ، وبعد أن كانت محررة المدن اليونانية صارت مستعبدتها ...

ولكن من الواضح أن هذا التدبير ، برغم ما فيه من الغبن لبقية المدن ، كان خطوة تقدمية كبرى في سبيل ضم البلاد اليونانية بعضها إلى بعض وإنشاء دولة موحدة فيها . وقد كان بركليس أعظم الرؤساء الاثينيين الذين عملوا لهذه الغاية ... إذ كانت سبارطة ما تزال تنازع أثينا على البلاد اليونانية ، ثم رضيت بأن تكون فائدة البر واثينا فائدة البحر ، إلا أن بركليس رأى ان القيادة الثنائية وعرة المسلك ، واراد ان يجعل لأثينا السيادة المطلقة في البر والبحر معاً ، وبنى من أجل هذه الغاية السورين الطويلين اللذين ربطا أثينا بمرفأ بيريه ، بحيث غدت من المنعة في مكان عظيم ، وأصبح في وسعها منازلة أعدائها براً وبحراً .

بيد أن سبارطة أبت أن تتنازل عن مكانتها ، وأخذت تعمل على تقوية طيبة ، وتعزيز شأن الحزب الأرستوقراطي المعادي لأثينا الديموقراطية في مدن بيوتيا المختلفة ، ثم انتهى هذا النزاع سنة ٤٤٥ ق . م . بهدنة الثلاثين السنة ، ومن بنودها أن كلاً من المدينتين المتنافستين تظل رئيسة الجمهورية التي أنشأتها ، وليس لاحداهما أن تتدخل في شؤون الاخرى أو الولايات المخالفة لها .

وفي فترة السلم هذه ، التي لم تقتصر على البلاد اليونانية وحدها بل شملت جميع البلاد المجاورة للبحر المتوسط ، تجلت العبقرية اليونانية ، التي ما فتئت تنمو وتزدهر بأروع مظاهرها ، في أكثر

بقاع هلاّدة ، ولا سيما في مدينة أثينا ...

فبعد هوميروس الذي غنى بطولة الزمان القديم ، وهزيود شاعر الطبيعة والحياة القروية ، اللذين نبغا في أوائل عصر الآداب اليونانية ، أنجبت اغريقية وأثينا بنوع خاص ، عدداً كبيراً من نوابغ الفكر والفن ، فظهر من الشعراء الغنائيين سافو (٦١٠ - ٥٧٠ ق . م .) التي سماها أفلاطون ربة الشعر العاشرة ، وأناكريون (٥٥٠ - ٥٠٠) نديم الملوك ، وسيمونيدس (٥٥٦ - ٤٦٧) الذي خلّد شهداء الحروب الفارسية ، وبندار (٥٢٢ - ٤٤٨) شاعر الشباب والمرح ..

وبلغ فن التمثيل درجة عالية من الرقي ، فنبغ الشعراء العظام اسخيلوس (٤٥٦ - ٤٢٥) ابو التراجيديا الذي ندد بالطغاة والمغرورين والمتكبرين ، وسفوكليس (٤٩٦ - ٤٠٥) الذي بارى اسخيلوس وانتصر عليه برغم حداثة سنه ، ويوريبيدس الذي قيل انه قد بلغ من روعة مسرحياته ان أهالي صقلية قد اطلقوا سراح السجناء الأثينيين الذين أسروهم في موقعة سيراكوسه مكافأة لهم على تعليمهم إياهم أشعاره . ونبغ ارستوفانوس (٤٥٠ - ٣٨٥) أبو المسرحيات الهزلية .

ثم ظهر المؤرخون هيرودوتس (٤٨٤ - ٤٢٥) الذي طاف أنحاء العالم المعروف آنئذ ، ووصف ما شاهده بدقة وبراعة ، فسمي أبا التاريخ . وثوسوديس (٤٧١ - ٤٠٠) الذي عرف بالبلاغة المعجزة والحكمة العميقة . وزنفون (٤٥٥ - ٣٥٥) الذي اشتهر بكتابه المعروف بخواطر سقراط .

أما في الفلسفة والعلم فقد نبغ كثيرون ، منهم طاليس(٩٤٠-؟) الذي يعد أبا الفلسفة اليونانية ، وفيثاغورس (٥٨٠ - ٥٠٠) الذي سبقت آراؤه في الفلك تعاليم كوبرنيك ومدرسته بألفي سنة . وأناكساغورس الذي أتهمه الاثينيون بالكفر ونفوه فقال في منفاه : « لست أنا الذي خسرت بل الاثينيون هم الذين خسروني ». وبرز الفلاسفة الثلاثة العظام : سقراط (٤٦٩ - ٣٩٩) الذي سخر قومه من قبحه وسخر هو من جهلهم ثم أتهم بالكفر فحوكم وأعدم ، وأفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧) الذي أثرت تعاليمه تأثيراً عميقاً في جميع المدارس الفلسفية التي نشأت من بعده ، وأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢) الذي يسمى استاذ المفكرين ويرى بعض النقاد أن الذكاء الفلسفي والفهم اليوناني قد بلغا فيه أوجهما الاعلى ، ويشكون في أنه نشأ عالم يضارعه في الفهم والادراك .

وإلى جانب هذا كله تقدمت صناعة البناء تقدماً كبيراً ، وتطور فن النحت تطوراً عظيما ، وبرز مثالون كبار في طليعتهم فيدياس ، ومن طرفه الشهيرة تمثال الاله زفس في هيكل الاولمب الذي كان يعتقد اليونانيون أن من الغبن للمرء أن يموت دون أن يراه ، وبراكزتليس الذي قيل أنه عبر عن سجايا النفس بالحجر ومن آثاره تمثال أفروديت وهرمس . أما فن الرسم فلم يبلغ هذا المستوى الرفيع ، لقلة احتفال الناس به ، وأبرز من نبغ فيه بوليغنوتس (٤٧٥ - ٤٥٥) الذي قيل إن معالم الوجه صارت على يده لاول مرة مرآة النفس البشرية .

وقد سميت السنوات الاربع عشرة التي تلت عقد هدنة الثلاثين

السنة ، عصر الاثينيين الذهبي لما نبغ فيها ،برغم قصرها ،من عباقرة الفكر ، وأبرز عظماء ذلك العصر بركليس الذي كان المنبر عرشه والبلاغة سلاحه ، حتى سمي عصره عصر بركليس .

ولم يكن بدعاً ان يسيطر بركليس على اثينا بانقاد فكره وجمال فصاحته ، فقد كان الشعب يومذاك مصدر القوة في أثينا ، ولم يكن رجال الحكم والرأي ليقطعوا في امر الا بعد أن يناقشوه في مجلس عام ، ولم يسبق في تاريخ العالم أن نال شعب مثل الحرية السياسية التي كان يتمتع بها شعب أثينا .

وقد وسّع بركليس مدى هذه الحرية في نطاق الظروف التي يلابسها ، فاشرك عدداً كبيراً من أبناء الطبقات الفقيرة في ادارة شؤون الدولة التي كانت من قبله وقفاً على الاغنياء والمترفين وحاول أن يساوي بين جميع المواطنين الاحرار في الفرص التي تساعدهم على ممارسة حقوقهم السياسية والتمتع بقسط وافر من المتع العقلية والاجتماعية ، وأدخل اصلاحات كبيرة على نظام المحاكم المدنية فانشأ لها مجالس عامة ينتخب الشعب أعضاءها ، ويراوح عدد هؤلاء الاعضاء بين مائتي عضو والفي عضو حسب أهمية الدعوى التي يُنظر فيها . أما المشاريع العمرانية التي قام بها فما تزال آثارها الضخمة باقية حتى الآن ، وأهمها هيكل البارثينون على الاكروبول المخصص لآلهة أثينا العذراء .

وقد غدت أثينا في تلك الأيام أقوى مملكة بحرية في العالم ، وكان بركليس يفاخر بأنه ما من امة تستطيع الوقوف أمام الاسطول الأثيني . وهو لم يكن في الحق مبالغاً بقوله هذا ، فقد أضحى بحر

إبجه في أيامه بحيرة أثينية ، وأصبحت جزره وسواحله تابعة للامبراطورية الأثينية ، وكانت سفن أثينا التجارية تجوب البحار شرقاً وغرباً ، وتجمع الجزية من مائتي مدينة يونانية ...

ولكن عظمة أثينا الحقيقية كانت تتمثل في المكانة العليا التي ارتفعت بالفكر البشري إليها ، فقد اتحد الرقي المادي والرقي الفكري فيها اتحاداً وثيقاً وأثمر أروع الثمار وأدعاها إلى الاعجاب ، فبلغت الصناعات والفنون والآداب شأواً عظيماً جداً ، وبلغ الفرد العادي مستوى فكرياً لم يبلغه من قبل في بلدٍ ما ، وقيل انه لم يبلغه من بعد أيضاً .

الانهيار

كان مجد اثينا قائماً على الاتحاد الذي الفته بين المدن اليونانية التي حالفتها وبسطت عليها زعامتها .. وكان واضحاً ان هذا المجد حري بان يميل الى الغروب اذا زال هذا الاتحاد أو تزلزلت أركانه.. والحق ان هذه الاركان لم تكن من المتانة بحيث تتيح لذلك المجد البقاء ، لان الوحدة التي تعمل لها اثينا لم تكن تجد استجابة لدى المدن الاخرى، بل كانت تلاقي منها عداءً صريحاً لانها تتعارض مع فكرة الوطنية الضيقة السائدة في ذلك الحين ، وهي فكرة تجعل من كل مدينة وحدةً مستقلة منطوية على ذاتها لا تقبل الاتحاد مع غيرها الا اذا كان لها مقام الزعامة فيه ..

لم تقبل المدن اليونانية التي دخلت في الامبراطورية الاثينية ، فكرة الانضمام الى اثينا على أنها سبيل الى القومية الاغريقية ، ولم تكن مفاهيم العصر تهيؤها لقبولها ، وانما وجدت فيها استعباداً لها فأخذت تتطلع الى فرصة مؤاتية لتحطيم نيرها واستعادة حريتها واستقلالها ..

وكانت سبارطة ، منافسة اثينا ، ما تفتأ تبذل وسعها لاضعاف نفوذها وتشجيع المتمردين عليها .. وما لبثت ان استطاعت اثارة

الحرب عليها سنة ٤٣١ مع لفيف من الولايات الخارجة عليها ، فنشبت بينهما حرب ضروس عُرفت بالحرب البيلوبنسية ، أتت على ذلك المجد العظيم دفعةً واحدة ، اذ اقتحم البيلوبنسيون اراضي اتيكا واحرقوا مدنها وعاثوا فيها فساداً ، وساعدهم الوباء الذي سرى في اثينا الممتنعة عليهم وراء أسوارها الحصينة ، فقضى على ربع سكانها وأمات بركليس ، الشعلة الهادية فيها ..

وشاعت بعد موت بركليس الفوضى في اثينا ، وجُن جنون أهلها ، فلما خرجت عليهم مدينة متيلين سنة ٤٢٨ ثم اعادوها الى طاعتهم ، رأوا أن يعاقبوها عقاباً رادعاً لغيرها ، فاقترح كليون القائد الفظ ذبح رجال المدينة الذين يبلغ عددهم نحواً من ستة آلاف نسمة ، وبَيع نسائها وأولادها في اسواق الرقيق ، فوافق المجمع الاثيني على اقتراحه ، وارسل الى متيلين جماعةً لتنفيذه ، ثم ندم المجمع في اليوم التالي على قراره الوحشي فأبطله ، وارسل الى المدينة الثائرة جماعة اخرى لمنع تنفيذه ، مكتفياً بقتل ألف من أشراف المدينة ، وهدم اسوارها ، ومصادرة قسم كبير من اراضيها .. فهب الاسبرطيون وحلفاؤهم في صيف تلك السنة نفسها ، فهاجموا بلاتيا احدى مدن اتيكا وقتلوا جميع رجالها ، وباعوا نساءها إماءً ، وهدموا منازلها ، وجعلوا ارضها مرعى لخيلهم ومواشيهم ..

وما زالت اثينا تتراجع عن مراكزها القديمة واحداً بعد آخر ، حتى ورّطها فائدطائش من قوادها بدعى الكيبياديس في غزو مدينة سيراكوس بجزيرة صقلية ، فأعدّت من اجل هذه الغاية اسطولاً عظيماً بذلت مجهوداً كبيراً في تجهيزه بالرجال والاسلحة ، وأرسلته

الى تلك المدينة لمحاربتها .. وقال المؤرخون في سفر هذا الاسطول ان اثينا نفسها قد اقلعت فيه كي لا ترجع ابداً ..

ذلك ان هذه الحملة لم تكد تقلع من مرفأ بيريه ، حتى شاهد ابناء اثينا في اليوم التالي تماثيل الاله هرمس الموزعة في المدينة قد تشوهت تشويهاً كبيراً فاتهموا الكيبياديس بهذا العمل لما عرفوا من الحاده وتهتكه ، وأرسلوا في طلبه لمحاكمته بهذه التهمة ، وكان الكيبياديس أحد قادة الاسطول فهرب الى سبارطة ، وسعى مع أهلها لتحطيم الحملة التي أعدّها بنفسه ، وارسل الاسبارطيون بمشورته الى صقلية جيشاً كبيراً وقائداً ماهراً يدعى غيلبس ، فانهزم الاثينيون أمامهم واعتزموا الهرب من الجزيرة ، ولكنهم ما ان لجأوا الى سفنهم حتى خسف القمر ، فتطير قائدهم نيسياس من ذلك ، واستشار سحرته فنصحوه بتأجيل تقهقره ٢٧ يوماً ، وأدت هذه النصيحة الى هلاك القسم الاكبر من الاثينيين قتلاً وبرداً وجوعاً ، وأسر الباقون منهم فبيعوا في أسواق العبيد . ولم يكتف الكيبياديس بذلك ، بل أشار على الاسبارطيين في الوقت نفسه ، بالاستيلاء على حصن ديكيليا في اتيكا ، فاستولوا عليه وأخذوا يهددون اثينا التي لاتبعد عنه الا اربعة عشر ميلاً .

وعبثاً حاول الاثينيون بعد ذلك النهوضَ من الكوارث التي حلت بهم ... وقد بلغ من يأسهم وتعلقهم بكل بارقة من أمل ، انهم غفروا للكيبياديس آثامه كلها ، فدعوه اليهم وعهدوا اليه بقيادة جيشهم ، رجاءَ ان يستعيدوا على يديه بعض ما فقدوه ، ولكن جيوشهم ظلت تنتقل من هزيمة الى هزيمة ، حتى خشي

الكبياديس على نفسه وهرب الى آسيا الصغرى حيث قتل بعد بضع سنين. وعلى اثر هروبه انكسر الاسطول الاثيني في الدردنيل، وقتل الاسبارطيون اربعة آلاف اثيني ممن كانوا يحاربون عليه، ثم حاصروا اثينا براً وبحراً وارغموها على التسليم، ودخلوها مع حلفائهم اللاسيديمونيين سنة ٤٠٤ وهدموا سفنها وأسوارها وحصونها على الحان الموسيقى، ولكنهم ابوا تدمير المدينة لانها احدى عيني اليونان ...

الا ان تلك العين المتألقة قد خبا نورها منذ ذلك الحين .. اذ تحولت اثينا الى طلل بالنسبة الى ما كانت عليه، فحل القفر محل المدن العامرة، وانحطت الفنون والاداب، وتأخرت الصناعة والتجارة، وشاع التفسخ والانحلال في الطبقة المترفة الحاكمة .. حتى قال ثيمستكليس ان اثينا قد بقيت في سفنها التي ضاعت في اليم ... فهي اشبه بلؤلؤة لم تبق غير صدفتها الفارغة ! والحق ان مجد اثينا قد انقضى حينذاك، وصارت نظير قرطاجة، كثر فيها الترف والمجون وانشغل أهلها بهما عن القيم العظيمة .. واذا كان قد بقي في وسعها أن تنجب رجالا عظاماً، فقد بات متعذراً عليها انجاب شعب عظيم !

وسادت سبارطة ... وانفردت وحدها بالسيادة على البلاد اليونانية وعلى أثينا نفسها ... وحلت محل نظم اثينا الديموقراطية نظم سبارطة الارستوقراطية الظالمة ... فساورت الاثينيين ردة رجعية أعدموا في غمرتها فيلسوفهم سقراط بتهمة الكفر والفساد.

ولكن سيادة سبارطة كانت تهددها مظالمها نفسها ، والقسوة الشديدة التي كانت تعامل بها اليونانيين ، مما حمل أبناء طيبة على الوقوف في وجهها ، ومهاجمتها في لكترا سنة ٣٧١ ، والتغلب عليها ، وانتزاع السيادة من يدها ... فأثار انتصار طيبة حسد أثينا ، ودفعها الى مناصرة سبارطة في مناوأتها إياها ، فانتصرت طيبة على كل من المدينتين المتناصرتين ، واستمر انتصارها حتى سنة ٣٦٢ ، ثم أخذت قوتها تتضاءل ومال مجدها الى الغروب ... غير ان المدن اليونانية التي انهكتها الحروب الداخلية واستنفدت قواها ، كانت قد اخذت تتطلع إلى الشمال بقلق وحذر كبيرين ، إذ بدا لها منه خطر خارجي يهددها جميعاً ، هو الخطر المكدوني ...

وقد كانت مكدونية في الاصل جزءاً من هلادة ، تقع شمالي جبال الكمبونية وراء خلكيديا ، وكان سكانها جبليين متأخرين لغتهم آرية ولا يعرفون اليونانية الفصحى ، مما جعل انسباءهم المتحضرين في الجنوب يسمونهم برابرة . ولكن السلالة المالكة في مكدونيا كانت تؤكد انها من اصل هيلاني ، مما حمل اليونانيين على اشراك المكدونيين في العاجم الاولمبية التي لا يقبل فيها الا الهيلانيون العريقون .

وبرزت مكدونيا لاول مرة على مسرح السياسة العالمية ، في عهد فيليب الثاني (٣٥٩ ـ ٣٣٦ ق. م.) او فيليب المكدوني كما سمي في التاريخ ، وهو نابغة من نوابغ الادارة والسياسة والقيادة العسكرية ، رفع بلاده الى مقام عال لم يكن لها من قبل ، وجعلها من القوة في مكان عظيم ، فبسطت سيطرتها بسرعة فائقة على

جزء كبير من تراقية ومدن خلكيديا ، واخذت تطمع في الاستيلاء على جميع بلاد اليونان .

وكان اول من انتبه في اثينا الى الخطر المكدوني ، واكبر من قاومه ونذر حياته لمكافحته بهمة لا تعرف الكلل ، وارادة لاتعرف القنوط ، الخطيب الكبير والوطني العظيم ديموستين .

ديموستين

•

وُلِدَ ديموستين [1] سنة ٣٨٤ ق . م . في بيانيا بضواحي أثينا . وكان أبوه ديموستين من سراة أثينا ، ومن أمهر رجال الأعمال فيها ، ويملك معملين اختص أحدهما بصنع الأسلحة وفيه اثنان وثلاثون عبداً . وقد مات وابنه في السابعة من عمره ، فورث عنه ثروة طائلة ، عُهِدَ بها إلى أوصياء ثلاثة من أغنياء أثينا وممن يمتون إلى الأب الراحل بصلة القربى أو الصداقة الوثقى . فتصرّف هؤلاء تصرفاً سيئاً بالارث الذي انبط بهم الاشراف عليه ، لاهمالهم واسرافهم ، فساءت أحوال المعملين وانتهى أمرهما إلى الافلاس .

وفي خلال ذلك كان ديموستين الصغير ينمو في كنف امه كليوبوله ، التي لم تشأ ان تنشئه على تمارين الرياضة البدنية كما كان شائعاً في عهده ، ولكنها لم تهمل أمر تعليمه كل الاهمال ، فاختلف إلى المدارس ، وقد فاخر بذلك في كبره . ولكن من المحقق انه لم يتعلم في صغره ما يؤهله ليكون من عظماء الرجال ، ولولا ما فُطر عليه من الذكاء ، وما بذل من جهد ودأب ، لطوى الدهرُ ذكره كما طوى ذكرى الوف وملايين غيره .. فهو خير دليل على

(١) أو ديموستينيس Démosthenes

أن الانسان الموهوب يستطيع بالاجتهاد والثبات تحطيم اكثر العقبات التي تعترض طريقه إلى الذرى الرفيعة .

ولما بلغ الفتى سن الثامنة عشرة طلب من أوصيائه حساباً على ثروته ، فعلم أنه لم يبقَ من هذه الثروة غير عشرها ، فقاضاهم إلى المحكمة ، واستمرت المحاكمة بينه وبينهم ثلاث سنوات تقريباً . وفي خلال هذه المدة الطويلة أخذ ديموستين يختلف إلى استاذ يلقنه علم الحقوق والبلاغة ، كي يدافع عن قضيته بنفسه ..

وقد رويت عن فصاحة ديموستين ، والشدة التي أخذ نفسه بها لاتقان فن الخطابة ، روايات شتى لا ندري مدى صحتها . فقد قيل انه انتبه إلى ان مرافعاته الاولى في قضيته مع وصيّه افوبوس ، كانت ضعيفة جـــداً لاضطرابه وعجزه ، وخفوت صوته ، وتلعثمه في الكلام ، ولكن ذلك لم يثن من عزمه ، بل استثار كل ما في نفسه من عزيمة لاصلاح عيبه والفوز بمطمحه ، فعمل على إتقان الخطابة والتفوق فيها ، ولجأ في ذلك إلى أساليب عدة ، فقيل إنه استظهر ربخ ثيوسيديد ، وقيل إنه نسخه ثماني مرات كي ترسخ في ذهنه جمله البليغة وتراكيبه الأنيقة ويتأثر باسلوبه الجزل . وقيل إنه كان قبيح الصوت ، ألكن اللسان ، بطيء الذهن ، تشوب نطقه لثغة بسيطة ، فأنشأ ينفرد بنفسه فيضع الحصى في فمـــه اثناء الكلام لازالة لثغته ، ويخطب في الجو العاصف أمام أمواج البحر الهادر ، بكل ما في صوته من قوة حتى يعـــلو على هدير البحر الصاخب ، ويعدو أشواطاً طويلة كل يوم كي يتسع صدره وتقوى رئتاه ، ويتلو الكلام وهو يصعد الجبل ليتعود حبس أنفاسه وقتاً

طويلاً .. ويعتكف الشهر والشهرين في حجرة تحت الأرض ، يكتب ، ويخطب في الأحجار ، وقد حلق جانباً من شعر رأسه ليتعذر عليه الخروج . وقد يلجأ إلى الممثلين لاصلاح القائه ، ويستعين بالمرآة لمراقبة حركاته وإشاراته ... وما زال يعالج مواطن الضعف في صوته والقائه ، ويقوي المواهب الدفينة في نفسه ، حتى غدا الخطيب المصقع الذي يسحر أثينا ببلاغته وجزالته وجميل القائه ..

ولسنا ندري مدى الصحة في هذا كله ، ولكن الراجح أن ديموستين قد بذل جهداً كبيراً ، وقاسى عنتاً شاقاً ، في سبيل الوصول إلى تلك الذروة التي بلغها في فن الخطابة .. حتى إنه لشدة تعبه على دقة المعاني وصحة التراكيب ، كان خصومه يعيرونه بأن عبارته تنضح برائحة الزيت .. فيجيبهم : ولكن زيتي يضيء !

ومن المؤكد أنه قد أفاد كثيراً من الاستاذ الذي اختلف اليه لتلقينه علم الحقوق ، وكان هذا الاستاذ يدعى ايزه ، وهو محلّف ممتاز وأحد علماء القانون في عصره ، وقد اشتهر بفصاحته ، واسلوبه الأنيق ، ومهارته أمام المحاكم ، وبراعته في النقاش الدقيق والجواب المحكم .

وسرعان ما بدا أثر هذه الدروس في مناقشات ديموستين مع خصمه افوبوس ، فحُكم على هذا بتأدية المبلغ المطلوب منه . إلا أنه استعان بنفوذ أسرته للتخلص من هذا الحكم أو عرقلة تنفيذه ، مما اضطر ديموستين إلى إقامة دعاوى جديدة لم تُعرف نتائجها معرفة دقيقة ، ولكن المعروف ان الخطيب الشاب لم يستعد إرثه كله ،

وأن المعملين اللذين تركهما له أبوه كانا قد توقفا عن العمل منذ وقت غير قصير . ويبدو أنه اكتفى بانتزاع جزء من الثروة التي استلبها افوبوس أشدّ أوصيائه اساءة اليه ، وأخذ يفاوض ديموفون وتيربيديس الوصيين الآخرين للوصول إلى اتفاق ودي معهما .

وما لبث علم الحقوق الذي درسه ابتغاء الانتفاع به في شؤونه الشخصية ، ان أضحى مهنة له يتكسب بها ، فطفق يكتب الخطب والمرافعات لمن يطلبها منه مقابل أجر معلوم لالقائها في المحافل أو أمام المحاكم ، فجمع من ذلك ثروة كبيرة ، وهكذا درس ديموستين الحقوق سنة ٣٦٢ بحكم ظروفه الشخصيـــة التي اضطرته إلى ذلك اضطراراً ، ثم نال اجازة رسمية فيه سنة ٣٥٩ وغدا يمارسها كحرفة يعيش منها ، ثم استخدمه في سبيل وطنه متطوعاً منذ سنة ٣٥٧ اثناء حملة ابوبه على ابناء طيبة .

وقد استمر ديموستين وقتاً طويلاً يمارس حرفة الخطابة دفاعاً عن هذا او ذاك من المتقاضين ، ثم انشأ بدوره مدرسة للبلاغة على غرار استاذه الذي تلقنها عنه . بيد ان نشاطه لم يقتصر على تدبيج الخطب للآخرين .. فالى جانب تعهّده المستمر لمزاياه الخطابيـــة باصرار عجيب ، كان يولي المسائل السياسية اهتماماً كبيراً . وكانت مناقشات المجلس الأثيني العام – وهو البرلمان الشعبي الذي يحضره في سوق المدينة ويشترك في ابحاثه كل مواطن حر يتمتع بحقوقـــه المدنية – ومطالعاته وتأملاته في تاريخ اثينا الحافل بالعبر والأمجاد ، تحثه يوماً بعد آخر على الاشتراك في حياة بلاده السياسية اشتراكاً نشيطاً فعالاً ...

ويبدو أن مطالعاته كانت واسعة جداً ، ويتبين من خطبه انه كان مطلعاً على الشعر المعاصر له ، وانه قد تأثر بمن سبقه وعاصره من كبار الكتاب والخطباء ، وفي طليعتهم توسيديد المؤرخ الذي عدد أمجاد اثينا وسجل باسلوبه المبين ما قاله خطباؤها أو ما نسبه لهم في القرن الخامس قبل الميلاد ، وقبل ان ديموستين قد استظهر تاريخه .

والواقع ان هذه العاطفة العميقة الحارة ، من الاعجاب بعظمة اثينا القديمة ، هي أعظم ما ألهم ديموستين وأجرى الفصاحة على على لسانه . لقد كان يفكر بمزيج من الحزن والفخر ، في العهود الماضية التي رد فيها مواطنوه هجوم « البرابرة » في البر والبحر ، ثم أملوا ارادتهم على قسم كبير من العالم الاغريقي . وكثيراً ما حذر المجلس العام من نسيان ذلك الماضي المجيد الذي يقضي عليهم بأن يعملوا بعزيمة فولاذية وارادة لا تلين لاستعادة نفوذهم القديم : « انكم لتزوحون بالعار ايها الاثينيون ، أجل ، بالعار ، إذا تخليتم عن المكانة التي رفعكم اليها اسلافكم ! انه لا يحق لكم ، حتى وان اردتم ذلك ، أن تقفوا على الحياد في شؤون هلاّدة » .

وكان ما يفتأ ينوّه بالتناقض الصارخ بين ابناء اثينا القدماء ، وابنائها المحدثين ، مذكّراً مستمعيه بما كان أسلافهم عليه ، هاتفاً بهم بعد ذلك : « قارنوا اذن ، بين اعمالهم واعمالكم ، فلعل هذه المقارنة تنجع في اصلاحكم . »

كان يقول لهم ان اولئك الأسلاف قد سادوا هلاّدة طوال خمس واربعين سنة ، وجمعوا في الاكروبول اكثر من عشرة

آلاف وزنة ، وشادوا بعد انتصاراتهم العظيمة في البر والبحر ، عدداً كبيراً من نُصب النصر الرائعة تملأ فخراً حتى اليوم . ولكن اولئك الاسلاف العظام لم يتركوا لخلفائهم تراثاً من المجد لا يُضارع وحسب ، بل تركوا لهم الابنية العظيمة التي عمروها والآثار الجميلة والمرافىء التي لم يبق في وسع هؤلاء الخلفاء ان يضيفوا اليها شيئاً جديداً ..

لقد كان شديد الاعجاب بما كان لوطنه من نبوغ وقوة وثروة، وكان يريد ارادة عارمة ان يرى هذا الوطن وقد استعاد المكانة العليا التي كان يتمتع بها بين بقية الدول اليونانية والاجنبية ، ولا يستطيع ان يكتم ألمه وحزنه للمشهد الذي بدت فيه اثينا والبقاع المجاورة لها سنة ٣٥٤ ، اذ أصبحت سليبة مهدّدة قد استولى المعتدون على ممتلكاتها ، وتمرّد حلفاؤها عليها ، واهلها نيام لا يستثيرهم ذلك المشهد الاليم ، ولا يحفزهم الى النهوض، فانشأ يخطبهم بالقول الجزل والتعبير البليغ ، حاملاً على الفردية والميوعة والانهزام ، هذه الآفات التي شاعت في وطنه فتهافتت الاخلاق وتداعى الايمان بالمثل العليا حتى كادت تصبح مهزأة لقوم وملهاة لآخرين !

غير ان الموضوعات الخارجية التي تتعلق بالمحافظة على سلامة اثينا واستعادة قوتها ومكانتها ، لم تكن الموضوعات الوحيدة التي شرع ديموستين يعالجها حين بدأ حياته السياسية ، بل كان يدافع ايضاً ، بحماسة عظيمة ، عن مصالح مواطنيه المادية ، وعن حرياتهم الاجتماعية لما لهذه الناحية من علاقة وثيقة بتلك ، وان لم يكن له في هذا

الحقل اهداف واضحة يبشر بها وبرنامج منظم يدعو اليه .

وكان يرى ان على الاثينيين ان يحرصوا بكل ما يستطيعون من قوة على الاحتفاظ بالسيادة على بحر ايجه والدردنيل والبوسفور وعلى شبه جزيرة خورسونيزة ، بل يذهب الى ابعد من ذلك فيرى ان من مصلحة مواطنيه ان يحافظوا على صداقة امراء البوسفور الذين تفيض مملكتهم بالقمح وتمنح تجار اثينا امتيازات هامة . وهذا الاعتقاد هو الذي كان يحمله على التخوف من الخطر الذي يشكله على البوسفور والدردنيل تقدم القوى المكدونية في في تراقية .

ومثل هذه الدعوة الحافلة التي كان يقوم بها ديموستين ، كانت تتطلب اطلاعاً واسعاً وكفايات متعددة وموهبة خطابية بارعة ، وهي امور لم تكن تنقص الوطني العظيم منذ تلك السن ، وكانت التجربة ما تفتأ تقويها وتزيدها غنى ، فقد كان يعرف معرفة دقيقة ، الموارد التي يملكها الاثينيون ، والنقائص التي تسود انظمتهم المالية والعسكرية ، والعيوب التي يتصف بها عدد كبير منهم ، فلم تكن نداءاته الوطنية تقتصر على الجمل الملتهبة الرنانة ، بل كانت تتضمن ايضاً الملاحظات الدقيقة التي يرى انها لا غنى لاثينا عن الاخذ بها من اجل نهضتها وسلامتها .

ولا ريب في انه لم تتوافر له مثل هذه المعرفة الواسعة عن كل دولة اغريقية او دولة اجنبية من الدول التي يدعو الى محالفتها أو مقاومتها ، ولكن معرفته بهذه الدول لم تكن مع ذلك قليلة الأهمية ، وكان يعنى بتوسيعها بالمطالعة والتجربة والاتصال المستمر

بمختلف الاوساط والسفارات الأجنبية ، كي تكون اراؤه بصددها معززة بالمعلومات الدقيقة ، تشهد بذلك الوثائق والأرقام التي كان يستشهد بها في خطاباته والتي كانت في اغلب الاحيان صحيحة مستقاة من اوثق المصادر .

وجملة القول ان سياسة ديموستين لم تكن بالسياسة المرتجلة ، التي لا تستند على المعرفة ، والتي تقوم اكثر ما تقوم على الشعارات الفارغة والاصرار على آراء ومواقف معينة وان بدا غلطها .

لقد كانت لهجته لاذعة شديدة القسوة ، وكان يحدث مستمعيه عن المثل العليا ، ويهاجم الرذيلة والتخاذل بعنف جارح ، ويستخدم من اجل انتصار مبادئه ذكاء بارعاً نافذاً الى الأعماق ، ولكنه كان يتجنب التحيز والعناد ، ويحرص على الانتفاع بالدروس التي تمليها الحوادث الواقعيـــة . وعلى الرغم من اعتزازه بوطنيته الاثينية ، وخصومته لبعض الدول الاغريقية او لملك فارس وغيره من الحكام الاجانب ، لم يكن ليتردد في دعوة مواطنيه دعوة حـــارة الى مساعدة هؤلاء الحكام او تلك الدول حينما يرى ان سلامة اثينـا تقضي بمثل هذا المسعى ، وان ضرورة الدفاع عنها من خصم قوي خطير تتطلب التحالف مع خصم أقل خطراً واضعف شأناً .

وبرغم ما عُرف به من وطنية عظيمة مضطرمة ، لم تكن هذه العاطفة النبيلة لتحمله على التمسك الأعمى بكل ما هو قومي ، اذ كثيراً ما هاجم بعض التقاليد القومية حين رأى انهـــا قد جمدت وتحجرت واصبحت تمنع اثينـا من النمو وتحول بينها وبين التقدم المستمر .

كان ديوستين اذن مفكراً كبيراً ووطنياً عظيما ، ومجدداً جريئاً ، وسياسياً حاذقاً يقظاً واسع الاطلاع ... وكان يتمتع الى هذا كله بموهبة خطابية فذة هي ولا ريب قوة لا يستهان بها من قوى اثينا في تلك الايام ..

لقد كانت بلاغته حية نافذة الى اعماق القلوب والضمائر .. غير ان هذا الخطيب لم يكن ليصعد المنبر كي يسحر المستمعين اليه أو يبهرهم ، بل لكي يخدم ، بأقصى ما يستطيع ، مصالح اثينا التي يحبها أصدق الحب ، فكان يبذل جهده قبل كل شيء لاقناع الاثنيين برأيه ، ودفعهم في السبيل الذي يريد ، وحثهم على اعتناق المبادىء التي يقدسها . ولهذا كانت الحوادث الواقعية تأخذ مكاناً رئيسياً في خطبه النضالية ، سواء منها تلك التي القاها في المحاكم والمحافل او امام جماهير الشعب ، لان هذه الحوادث خليقة بأن تضاعف من قوة الآراء التي يبديها ومن توجيه الرأي العام نحو النتيجة التي ينشدها ، وكان يستعين في ذلك بالحكاية والصورة والهجاء والحوار والجمل المعترضة والتعابير غير المنتظرة ، بحيث كانت خطبه تترك الجمهور في انتباه دائم ، منتزعة الاعجاب والاحترام والعطف العميق .

بدء الكفاح

كانت أول مناقشة عامة اشترك فيها ديموستين ، في أوائل خريف سنة ٣٥٤ ، نتيجة للانكسار الذي عانته اثينا في السنة السابقة في القسم الشرقي من بحرايجه ، وكان موضوع هذه المناقشة علاقة اثينا بالامبراطورية الفارسية وبالدول الاغريقية ..

ذلك ان فارس ، لم تنجح في سني ٣٦٠ - ٣٥٨ بتحطيم استقلال مصر التي ما فتئت تتملص من سيطرته منذ نهاية القرن الخامس ، وأخذ ارتاكسيركسيس الثالث اركوس يقوم باستعدادات عسكرية وبحرية لمحاربة مصر من جديد واخضاع الحكام المتمردين عليه في آسيا الوسطى . فشاع بين الاثينيين ان الحملة التي يعدّها ملك فارس ، او الملك الكبير كما كان يسمى ملوك الفرس في ذلك الزمان ، سترسل الى بلادهم ، واخذ الخطباء يحملون على اركوس ، ويذكرون بالمعاهدة الجائرة التي أملتها فارس عليهم في السنة السابقة ، ويطالبون المجلس العام باعلان الحرب عليها لجعل اثينا في مأمن من كل غزوة مقبلة والثأر للاهانة التي لحقتها سنة ٣٥٥ .

إلا ان ديموستين طفق يقاوم هذه المشاريع الحربية ، ويهاجم دعاتها ، وهو لم يقف هذا الموقف ابتغاء مخالفة الملك الكبير او

اكتساب صداقته ، بل هاجم كل فكرة تدعو الى هذا التحالف الذي لم يعد على الدول الاغريقية الا باسوأ النتائج ، وصرح بان الصداقة لا تعقد مع ملك ألِفَ الكذب ونقض العهود . غير ان موقفه من دعاة الحرب لم يكن أقل عنفاً ، لانه كان يعتقد بان نوايا الملك الكبير بشأن هلادة ما تزال مجهولة ، ولم يقم أيّ دليل على اعتزامه مهاجمتها ، فليس من مبرر يدعو الى استباق الحوادث والبدء بمعاداة امبراطوريته الواسعة ذات الموارد العظيمة ، والاشتباك معه في حرب ربما كانت خاسرة . لا سيما وان الدول الهيلينية غير متحدة ، وبينها من يفضل صداقة الملك الكبير على صداقة الدول المجاورة لها ، وربما ادّى ذلك الى خوض الحرب على جبهتين اثنتين : جبهة فارس وجبهة الدول الهيلينية المناصرة لها .

ولكن ديموستين لم يقتصر على هذه النصيحة السلبية ، بل نوّه بان على اثينا الضعيفة حينذاك ، ان تنظم شؤونها وتصبح من القوة بحيث لا تخشى الهجوم عليها ، وتنتقل ، عند الضرورة ، الى انتهاج سياسة ايجابية تفوق اليوم طاقتها ..

وقدم ديموستين لهذا الغرض ، برنامجاً دقيقاً وعملياً لاصلاح الانظمة السائدة بصورة تعزز الديموقراطية ، وتزيد في ثروة الدولة ، وتضاعف قوتها العسكرية ، وتزيل الفوضى السائدة في قواها البحرية ، وهي اقتراحات لم ترض المتمولين المسيطرين ، لا سيما وانه قد حمل عليهم حملة شعواء لتلكؤهم أو تهربهم من دفع الضرائب اللازمة للدولة .

بيدَ ان الوطني الكبير في وقوفه ذلك الموقف المعادي للفكرة

القائلة باعلان الحرب على الملك الكبير ، لم ينتظم تماماً في صف فئة اخرى كانت تحارب الحرب أيّاً كانت ، هي فئة اوبول وانصاره ، لأنه لم يقم بدعوته تلك مدفوعاً بمبدأ العداء لكل سياسة تنهج بالبلاد نحو القوة والمنعة ، بل لأسباب تتعلق بذلك الظرف الذي لم يجد فيه مسوغاً لتلك الحرب الحمقاء .

وقد كان ينبه خصوصاً إلى العداء المستحكم بين كثير من الدول اليونانية ، ويرى في ذلك ظاهرة محزنة ومخطرة، ويتمنى أن يكون الملك الكبير جاهلا حقيقة الوضع السائد في بلاد الأغريق ، ويعتقد بأن مواطنيه مسؤولون إلى حد كبير عن تفرق هلاّدة وتضعضعها، ويؤثر التحالف مع دولها ، ويبدي ميلاً خاصاً إلى التعاون مع طيبة لأنه لا يجد في أبنائها رغبة في الوقوف إلى جانب ملك فارس ، ويدعو الأثينيين إلى نسيان الأغلاط والخصومات القديمة ، مخالفاً بذلك اتجاه الدبلوماسية التقليدية في وطنه الذي كان يرى في الدول الأغريقية منافساً له وخصماً يأبى التعاون معه ويتمنى له الخسران المستمر .

وهكذا كانت آراء الخطيب الشاب جديدة كل الجدة ، مستقلة كل الاستقلال ، لم يقف فيها إلى جانب أنصار السلام ، ولا إلى جانب أعداء الملك الكبير ، أو أعداء طيبة الحاقدين المتحمسين .. فكان طبيعياً أن لا تلاقي نجاحاً كبيراً في الأوساط السياسية .. وإذا كان مواطنوه قد عملوا ببعضها فامتنعوا عن القيام بعمل معاد لفارس ، فمن الواضح ان خطاب ديموستين الذي لم يكن معروفاً حينذاك في المجلس العام ، والذي ظل وقتاً طويلاً بعد هذا

التاريخ لا تلاقي اقتراحاته غير الرفض أو الاهمال ، لم يكن العامل الوحيد أو العامل الرئيسي الذي حملهم على ذلك ، وان موقف اوبول وانصاره من اصحاب النفوذ هو الذي أثر بالدرجة الاولى في الرأي العام ، بدليل ان أحداً لم يأخذ باقتراحاته الاخرى في ميدان الاقتصاد والدفاع . فان السلام الذي كان ينشده ، هو السلام الذي تتمتع به دولة قوية مسلحة قادرة على فرض احترامها على كل معتد جبار ... وليس سلام الدولة العاجزة ، الراضية بعجزها ، وهو السلام الذي وافقت عليه اكثرية الاثينيين لما امتنعوا عن اعلان الحرب على الملك الكبير .

وكذلك لم تتحقق رغبة ديموستين الحارة في القضاء على الخصومات التي تمزق بلاد هلاّدة ، ومنها وطنه اتيكا ، فظل العراك مستمراً بين دولها المختلفة . وكان الوطني الكبير يحرص على ان يكون في جانب الفئة ذات الحق الصريح . ولكن المجلس العام لم يكن ليأخذ بمقترحاته دائماً ، وقلما كان يجد تأييداً لسياسته ، أما اوبول الذي اتفقت اهدافه واياها يوماً ، فما لبث ان خالفه في اكثر مقترحاته ، ولا سيما اذ وقف ديموستين يدعو الى مقاومة مشاريع لاسيديمون العدوانية ولو اقتضى ذلك حمل السلاح ، كما عارضته في هذه الدعوة الاوساط الرجعية في المجلس ، لان الحرب مع لاسيديمون الارستوقراطية كانت حريّة بان تؤدي الى نهضة الشعب ..

وفي سنتي ٣٥٣ - ٣٥٢ غدت تراقية وخيرسونيز مسرحاً لحوادث خطيرة الاهمية اشترك ديموستين في مناقشتها بالمجلس العام

باهتمام .فان كير سيبليبتس ملك تراقية الشرقية ، قد انتهز الفرصة المؤاتية التي اوجدتها الكوارث الاخيرة التي حلت باثينا ، واحتل شبه جزيرة خيرسونيز برغم اعترافه السابق بالسيادة الاثينية عليها ، وحاول بسط سيادته على تراقية الوسطى والغربية بمساعدة شاريديم خلافاً لمعاهدة سنة ٣٥٧ التي قسمت مملكة كوتيس الى ثلاث امارات .وقد أراد الحصول على تأييد اثينا له في محاولته هذه، مستعيناً بمواطنين اثينيين لهما في وطنهما نفوذ كبير ، هما اريستو قراطيس وأريستو ماكوس ، فلاقى ذلك معارضة شديدة في اثينا لما عاناه اهلها من عداء كرسيبليبتس في سني ٣٥٩ – ٣٣٧ ونقضه عهوده لهم . ثم اضطره تقدم جيوش الملك فيليب المكدوني ، الى طلب صداقة الاثينيين باي ثمن كان ، فتخلى عن مشاريعه تلك ، ونفذ معاهدة سنة ٣٣٧ ، معيداً الى اثينا شبه جزيرة خيرسونيز ما عدا مدينة كارديا التي تصل بين تراقية وشبه الجزيرة .

ولكن برغم عداء ملك تراقية الشرقية للملك فيليب والصداقة التي أخذ يبديها لاثينا ، وجلائه عن شبه جزيرة خيرسونيز ، فقد ظل اسمه يثير الحذر لدى عدد كبير من المواطنين الاثينيين ، فعارضوا في المجلس العام دعوته الى عقد معاهدة تحالف بين تراقية واثينا ..

وكان اشد المعارضين تحمساً ، اوتيكليس الذي ألقى خطاباً كبيراً وضعه ديموستين ، تحدث فيه عن ضعف اثينا الذي يجب ان يمنعها عن التفكير في دخول الحرب قبل ان تعالج امورها بحزم ، وعدّد اساآت ملك تراقية لاثينا وتخلّفه عن تنفيذ معاهدة سنة ٣٣٧

الا عندما اضطر الى ذلك ، وابقاءه مدينـــة كارديا تحت نفوذه لاحتلال شبه جزيرة خيرسونيز في أيّ وقت اراد ، وقال ان مثل هذا الرجل المستبد لا يمكن ان يكون حليفاً أميناً لأثينا ، فضلاً عما يُلحقه بها مثل هذا التحالف من عار ... ولكن هذا كله لم يمنع ديموستين الذي لا ينظر إلا الى مصلحة وطنه ، ولا يصدر في رأيه عن فكرة الانتقام من مجرم يجب ان يكفّر عن جرائمه بأيّ ثمن كان – عن التصريح بضرورة مساعـدة كيرسيبليبتس إذا ألمّ به الخطر المكدوني حقاً ، حفظاً لسلامة شبه جزيرة خيرسونيز من الملك فيليب ذي الأطماع الخطيرة ..

وفي ذلك الوقت نفسه تقريباً ، حاول ديموستين حمـل المجلس العام على ارسال حملة عسكرية الى الشرق تعيد الى اثينا جزءاً من النفوذ الذي كانت تتمتع به في آسيا الوسطى قبـــل كوارث سنة ٣٥٧ ، وذلك باسترداد جزيرة رودس التي كانت قـــد تمردت على اثينا مستعينة عليها بالقوى الأجنبية ، فاضطرت اثينا الى الاعتراف باستقلالها وأصبحت تابعة لمن زعم تحريرها ، فان موزول الذي كان يزعم انه صديقٌ حميمٌ لحكام رودس ، ما لبث ان سلبهم حريتهم ، واصبحوا عبيداً له ثم عبيداً لزوجته ارتيميس التي خلفته في الحكم .

القى ديموستين هذا الخطاب تأييـــداً للحزب الديموقراطي في رودس الذي نفي قادته من موطنهم ، وجاءوا يلتمسون من اثينا مساعدتهم على تحريره . فحمل عـــلى خيوس ورودس وبيزنطة وغيرها من حليفات اثينا التي تمردت عليها بحجة انها تريد استعبادها . وقال ان تحرير رودس الآن من اتباع الملك الكبير بعيد الثقـــة

باثينـــا ، ويجعل الاحزاب الديموقراطية في خيوس وبيزنطية وغيرها ، ترى فيها الضمان الوحيد لسلامتها من الفئات المسيطرة التي ضحت بأوطانها لتقضي على الحركات الديموقراطية فيها .

وقد لاقى اقتراح ديموستين معارضة شديدة ، فحمل على المعارضين حملة شعواء ، وسماهم اعداء المصلحة العامة ، وقال ان أمثال هؤلاء هم الذين هبطوا باثينا من مجدها وكبدوها ما تحملت من خسائر « وبسبب هؤلاء لا يتم شيء صالح الا بعناء كبير . وانهم بتأييدهم لانصار الحكم الفردي في رودس ، يستحقون الحرمان من حق ابداء آرائهم في المجلس العام . وان عطفهم على الارستوقراطية ليتجلى صراحـــة في الجهد الذي يبذلونه لمنع اثينا من الانتصار للديموقراطيين في رودس ، ناسين انه لا يمكن ان تقوم ابداً أية صداقة بين اثينا وحكومة استبدادية . وخير لنا ان تكون جميع المدن اليونانيـــة ديموقراطية وعدوة لنا ، من ان تصادقنا مدينة يونانية واحدة تقرّ حكم الاستبداد . لانه لا يصعب عليكم ان تصلوا مع الاحرار الى السلام الذي تنشدون ، أما مع انصار الاستبداد ، فان الصداقـــة نفسها تنطوي على كثير من الاخطار . فبين الارستوقراطيين واكثرية الشعب ، بين اولئك الذين يريدون أن يكونوا أسياداً واولئك الذين يحبون المساواة ، لا يمكن ان يقوم عطف متبادل وحب صحيح » .

ولكن سياسة المسالمة التي كانت تتبعها اثينـــا مع مضطهدي الشعب اليوناني ، أدت الى رفض اقتراح ديموستين . ولم تتورع اثينا بعد شهور معدودة ، وهي التي رفضت مساعدة اليونانيين في

رودس، عن إرسال ثمانية آلاف من الجنود المرتزقة الى الامبراطورية الفارسية لتستخدمهم هذه في أغراضها الحربيـة الاستعمارية . وقد أدى انتصار هذه السياسة الانهزامية المتخاذلة الى تقوية نفوذ اوبول بعلها الرئيسي، فعهد اليه بالاشراف لمدة اربع سنوات على الشؤون المالية ، وهو أهم منصب في الدولة .

الخطر المكدوني

●

كان ديموستين يتـــابع انتصارات الملك فيليب باهتمام وقلق كبـيرين ، والراجح انه كان يتبين الخطر المكدوني الذي يهدد بلاده ، منذ القى اول خطاب سياسي سنة ٣٥٤ ، محذراً مواطنيه من مهاجمة الامبراطورية الفارسية ، مذكّراً اياهم بأن لهم « اعداء صريحين » ينبغي لهم ان ينظموا قواهم حذراً منهم وحفظاً لسلامتهم وسلامـة ممتلكاتهم ، اذ من المؤكد انه لم يعن بقوله هذا مدينة لاسيديمون التي كانت حليفة لأثينا ، او مدينة طيبة التي كانت مشغولة بالنضال الشاق مع الفوسيديين ، او موزول الذي كان قد اكتفى بما استولى عليه من ممتلكات اثينية ولم يعـــد يتطلع إلى ممتلكات أخرى ، كما ان اثينا لم تكن تطمع في ذلك الحين باستعادة تلك الجزر التي تخلت عنها رسمياً بعد سنة من ذلك التاريخ . أمـا فيليب المكدوني الذي سلب الاثينيين قسطاً كبيراً من نفوذهم ، فقد كان خطره واضحاً ، لاستعداده الدائم الى معاودة حملاته على حلفاء اثينا في بلاد اليونان الشمالية ومعاودة زحفه على تراقيـــة وخير سونيز .

والحق ان الملك فيليب ما لبث ان عاود سنة ٣٥٢ زحفه على

تراقية الشرقية ، وحالف امادوكوس ، وحاصر مدينة هيريون تيكوس . فخاف الاثينيون وأخذوا يعدّون المشاريع الرامية الى تقوية الدفاع الوطني ، ثم تخلوا عنها لما علموا بمرض الملك . ولكن لم تكد تقبل سنة ٣٥١ حتى استولى فيليب على مراكب لدول محالفة لاثينا ، وهاجم جزيرتي ليمنوس وامبروس ، ثم صادر على مقربة من اوبه مراكب اثينية تجارية وغنم منها غنائم جسيمة . فاذا بديموستين الذي كان يقتصر حتى ذلك التاريخ ، على الاشارة الى الخطر المكدوني أشارات جلية مرة وغامضة مرة ، يشن على الملك فيليب حملة خطابية شعواء ، داعياً مواطنيه فيها إلى اتخاذ موقف قوي حازم ، والاقتراع على التدابير الاصلاحية التي يعتقد بانها وحدها التي تستطيع ان تجعل من اثينا دولة عظيمة قادرة على مقاومة العدو . وقد سميت خطبه هذه « الفليبيات » وقال أحد الذين ترجموا له « انها خطب لم تزل فريدة في محاسنها حتى الآن ، ولو القيت على قوم تنبض الحياة في عروقهم لاقتحموا أعظم المخاطر ولم يبالوا . ولكن الاثينيين كانوا حينئذ غاية في الرخاء والفتور ، منغمسين في الملاهي والملذات ، فلم تؤثر فيهم تأثيرها المطلوب . »

وقد بين في الخطبة الاولى من الفليبيات ، ان الخطباء الذين اعتاد المجلس العام سماعهم ، لم يرشدوا هذا المجلس إلى التدابير الوطنية التي لا غنى عنها ، ولذلك رأى من واجبه ان يتكلم عنها ، ثم بادر إلى مجابهة الاثينيين بالسبب الرئيسي للحالة المحزنة التي تعانيها بلادهم ، فهتف بهم : « انكم لم تصنعوا شيئاً مما كان

يجب عليكم ان تصنعوه ، إلا ان الوضع لا يدعو إلى اليأس : فما دامت جميع الكوارث التي تعانيها أثينا تعود الى جمود الأثينيين ، فان خلاصهم ممكن أو محقق متى اعتزموا الخلاص من الدجالين الذين يعطلون الامور بغير علمها الحقيقية .. ومتى استعدوا للعمل الجدي .

وأول عمل ينبغي لهم القيام به هو الاصلاح المالي ، فان المالك « يجب ان يدفع ضريبة من ثروته » وقد كان الموسرون يتهربون حتى ذلك التاريخ من دفع الضرائب الاجبارية ، وليس بينهم غير نفر قليل كان يؤدي ضرائب اختيارية في أوقات الملمات ، ولكن هذه الضرائب غير كافية لتأمين الدفاع الوطني ، ويجب ان يساهم الاغنياء منذ الآن بالقسط الاوفر من الاموال اللازمة لتأمين سلامة الوطن .

وتلي ذلك الخدمة العسكرية الاجبارية ، فان كثيراً من الاثينيين ، ولا سيما الاغنياء منهم ، كانوا يتهربون من واجب الدفاع عن البلاد . فيجب ان تُفرض الخدمة العسكرية الآن على كل من بلغ السن القانونية ، كي لا يترك أمر الدفاع الوطني الى المرتزقة الأجانب وحدهم ، بل يشترك جميع المواطنين على السواء في الحرب الوطنية التي تهم كل واحد منهم .

وأشار ديموستين الى ان الجنود المرتزقة كثيراً ما يقومون بالحرب على هواهم ، ويسيّرونها وفق ما يشاءون ، وربما خانوا مصالح اثينا حين تنقصهم الموارد أو تغريهم المغريات ... وقال ان خير سبيل لجعلهم يعملون على مصلحة اثينا باخلاص : هو ان تُدفع اجورهم بانتظام ، وان يكون الى جانبهم جنود مواطنون ، ويجب

ان يكون جيشنا جيش الجمهورية الاثينية حقاً . يجب على الشعب الاثيني الذي تفوق موارده في المـــال والرجال ، موارد جميع الشعوب الاخرى ، ان يعتزم اخيراً تنظيم قواه ومراقبة جيوشه ، ويعود ، كما كان في الماضي ، السيد الحاكم في جميع الشؤون » .

وقال : ان بين الاثينيين اناساً قـــد تهولهم عظمة فيليب ، ويرون ما هو عليه من ضخامة الملك وقوة الجيش وشدة البطش ، فيحسبونه من القوة والبأس بحيث لا 'يقاوم ولا 'يقهر ، ولكن فليذكر هؤلاء ما كانت عليه اثينا من عزة الجانب وسعة السلطان ورفعة الشأن ، وليعرفوا ان استعادة ذلك المجد امر ميسور ، متى اطّرحوا الخمول واقبلوا على العمل ، ولو ان فيليب ، قد فكر يوم كان ضعيفاً لا قبل لبلاده بمجابهة البلاد الاغريقية ذات العـدد العديد والعدة الوافرة ، بمثل ما يفكرون به ، لما تطلع الى مطمح ولما اقدم على عمل ، ولكنه لم يدع للبأس والتخاذل سبيلاً اليه ، وعرف ان الفوز للجريء المقدام ، فاجترأ وأقدم وفاز ... ولو فعلوا مثله لفازوا وانتصروا .. لا سيما وان فيليب هـــدف دائم للبغض والحسد والخوف ، لا يأمن حتى اقرب ثقاته وخلصائه اليه ، وان الشعوب التي يفرض عليها سلطانه لتجيش تحت نيره كما يجيش المرجل ولكنها في حاجة الى نصير كي تثور عليه وتبطش به .. في حاجة إلى مَثَل يريها ان بلاد هلادة لم يكتب عليها الفناء .. وان بين بلاد الاغريق دولة قوية جديرة بان تكسب ثقتهـــا فتمخضها ودها وتسير تحت لوائها لاسترداد حرية هلادة واستقلالها ..

وخلافاً لبعض الخطباء الذين كانت حماستهم اوفر من تفكيرهم

فاخذوا يدعون الى مهاجمة فيليب المقدوني في مراكزه ، قال ديموستين ان امكانات اثينا الحاضرة لا تسمح لها بانشاء جيوش جرارة تجابه بها جيوش الملك فيليب في كل مكان، ولكنها تستطيع المبادرة الى انشاء جيش قوي يستطيع الدفاع عن مراكزها ، وأصرّ على ان يكون عدد الجنود المواطنين فيه كبيراً ، وعلى ان ينتخب قائدَه الاعلى المجلس العام .

ولكن ديموستين قد أخفق في حمل مواطنيه على تبني مقترحاته المالية والعسكرية ، وظل يرددها مرات دون ان تلقى التأييد الذي تستحقه في المجلس العام . ولم يمنعه ذلك من مواصلة الدعوة اليها ، والنضال في سبيل تحقيقها ، لاعتقاده بانها السبيل الوحيد لانقاذ بلاده من خطر الدمار .

واستمر فيليب في زحفه على البلاد اليونانية ، مسجلا انتصاراً بعد آخر .. وفي ربيع سنة ٣٤٩ هاجم مدينة اولنت ، وهي المدينة الوحيدة من مدن بحر ايجه التي بقي في وسعها ان توقف زحفه المخيف . فاستنجدت اولنت باثينا ، وهب ديموستين يدعو إلى نجدتها ، برغم انها كانت إلى وقت قصير من المدن المعادية لاثينا ، لان فيليب باحتلالها يهدد بلاد اتيكا مباشرة ، فيجب ان يتدخل الاثينيون في معركتها دون ابطاء ، لعل قواهم اذا تضافرت مع قوى الاولنتيين تستطيع سحق الجيوش الهاجمة ، والا انتقلت الحرب الى بلادهم . وقد دعا ديموستين الى فرض ضريبة عامة على المواطنين لتأمين نفقات هذه الحملة ، كما دعا الى تعزيز النشاط الدبلوماسي ، وارسال السفراء الى جميع المدن المعادية لفيليب

المكدوني ، او التي تخشاه ، لتأليبها عليه .

وقد كان لهذا الخطاب بعض النتائج الايجابية ، لخطورة الموقف الذي وجدت اثينا نفسها فيـــه ، فبادرت الى التحالف مع اولنت ، وانشأت اعتماداً عسكريا لا يكفي لتأمين جميع المطالب التي تحتاجها البلاد ، ولكنه كان خطوة أولى لتعزيز الدفاع الوطني. ثم أرسلت حملة عسكرية الى خلكيديا تحت قيادة خاريس . الا أن هذه الحملة لم تكن تضم سوى ٣٠ سفينة والفي جندي من المرتزقة ليس بينهم مواطن اثيني واحـد ، وكانت أعمالها الحربية مقتصرة على خلكيديا وحـدها ، مما حمل ديموستين على القاء خطاب آخر في صيف سنة ٣٤٩ قال فيه ان ما بلغه فيليب المكدوني من نجاح حتى الآن ، إنما احرزه بسياسة الرياء والنفاق ، مغرياً المدن اليونانيـة بالوعود ، ومؤلباً بعضها على بعض ، ليفيـــد من تفرقها ويستولي عليها واحدة بعد أخرى ... ولكن الانتصار الذي يقوم على الظلم والكذب والخـــداع ، لا يمكن ان يعيش طويلا ، ولا بد له من الانهيار يوماً . غير ان انهياره لا يتم الا اذا تخلت اثينا عن جمودها الذي الفته وسكنت اليه . وأول ما ينبغي لهـــا الآن أن ترسل نجدات قوية الى اولنت ، وتساعد تساليا التي وقعت فريسة للملك الظالم ، وان توافق أعمالها الديبلوماسية في الخارج حشد قواها في الداخل وتنظيمها ، بحيث لا يقتصر سفراؤها لدى الدول اليونانية على القاء الخطب المنمقة ، بل يدعم أقوالهم جيش قوي خليق باثينا ، مستعد للذود عنها ، يعيـــد الثقة الى المدن الهيلينية ويثير حماستها ويكون قدوة لها . فمثل هذا النهج العملي يوجه ضربة شديدة الى

العدو الذي تنطوي قوته على كثير من عوامل الضعف . وواضح ان الاساس الذي تقوم عليه هـذه السياسة الحازمة ، هو استيفاء الاموال اللازمة لتحقيقها من القادرين على تأديتها ، وتجنيد المواطنين الاثينيين القادرين على القتال ..

ولكن نتائج هذا الخطاب لم تكن اكبر من سابقه ، فان اكثر الاغنيـــاء قد ظلوا يمتنعون عن مساعدة الدولة بالمال وظل الاثينيون لا يجدون ضرورة لانشاء جيش من المواطنين ، او اكثر أفراده من المواطنين على الاقل ، ولم ترسل غير نجدة محدودة الأهمية الى شبه جزيرة خلكيديا بقيـادة شاريديم ، وحينئذ القى ديموستين بصدد اولنت خطابا ثالثاً ذا لهجة عنيفة غاية في العنف واتجاه جديد لم يعرف به من قبل .

ولـكي نفهم هذا الخطاب جيداً يجب ان نذكر أن اثينا قـد أرسلت في تلك السنة نفسها ، برغم معارضة ديموستين ، حملة عسكرية الى اوبه لنصرة باوتارك طاغية ايوبتري ، فأخفقت وأدت الى خزي اثينا وضعف نفوذها ، وان ابولودروس أحد انصار ديموستين قد حاول حمل المجلس العام على الغاء القانون الذي يقضي بتحويل كل ما يفيض من الدخل العـام الى الاعتمادات المخصصة للملاعب ، كي يضم هذا الفائض الى الاعتمادات العسكرية ، فأخفق في هذه المحاولة التي تعزز قوة اثينـا وتساعد على تحرير اولنت ، واتهم بالتعرض للمقدسات ، وحكم عليه بأداء تعويض غير يسير .

ومن ثم ألقى ديموستين خطابه الناري ، فاستهله بقوله : « إنهم يحدثوننا عن طرد فيليب .. ولكني أرى امورنا في حالة تدعو إلى

التساؤل : كيف يتاح لنا أن نمنعه عن الاضرار بنا !» وبعد ان حمل على جمود الأثينيين وقعودهم وتخلّفهم عن اداء واجباتهم حملة لاذعة ، أهاب بأثينا إلى استخدام جميـــع القوى التي تملكها ، والاسراع إلى نجدة اولنت ، وارسال حملة قوية إلى خلكيديا ، مذكّراً مواطنيه بأن طيبة تبغضهم وفوسيدا عاجزة عن نجدتهم ، فاذا سقطت اولنت فلن تقف في وجه فيليب عقبة تحول دون مهاجمتهم في عقر دارهم ...

ولكن كيف تؤمّن نفقات الجيش المتعاظمة؟ لمّح ديموستين إلى أموال الملاعب ، غير أنه لم يصرّح برأيه في ذلك لأنه أيقن بأن رأيه الصريح سيضرّ به كما أضرّ بصديقه ابولودروس دون ان يفيد المصلحة الوطنية ما دام سيهمل وُيسفّه. ولكنه أشار بتأليف مجلس لاعادة النظر في القوانين القديمة ، ولا سيما ما يتعلق منها بالشؤون الدينية والخدمة العسكرية، لالغاء ما يضرّ بالمصلحة العامة منها .. وقال ان هذه القوانين إذا لم تلغ ، فلا تنتظروا من خطباء هذا المجلس أن يغامروا بقول الحقـائق التي تنفعكم والحقائق التي تؤذيكم .. لئلا يتعرضوا للعقاب غير المشروع الذي ينال كل من ينتقد تلك القوانين . وقال إن القانون بحدّ نفسه لا يؤلف شيئاً ، ولا تكون له قيمة إلا متى وضع موضع العمل .. ونحن الآن بحاجة إلى العمل أكثر من أيّ وقت آخر ، ألم يسلبنا هذا الرجل مراكزنا ؟ وإذا وضع يده على هذه البقعة ، ألا نعاني أقبح عار ؟ ألا إنه ليجب على الأثينيين أن ينهضوا ، وأن يعودوا ، كما كان أسلافهم ، أسياداً يحكمون رجال السياسة .. فقد كفى هؤلاء

تصرفهم بكل شيء ، بيانما الموطنون قد تحولوا إلى مرتبة الخدم وامناء الهياكل المساكين ، ولن يصبحوا كما ينبغي لهم ، إلا متى أقلعوا عن عاداتهم الفاسدة وتقاليدهم الجامدة وأدّوا واجباتهم الوطنية خير اداء » .

بيدَ أن ديموستين كان يضرب في حديد بارد ... فلم يُسمع له ولأنصاره رأي ، ولم يأخذ أحدٌ بنصائحهم ، حتى امتنع ديموستين عن الكلام في المجلس العام وقتاً طويلاً ... وفي خلال هذا الوقت ساءت الأحوال أكثر من قبل ، فأرسلت أثينا نجدة هزيلة إلى خلكيديا ، ولكن هذه النجدة لم تكد تصل إلى شبه الجزيرة حتى سقطت مدينة اولنت في يد الفاتح في آب سنة ٣٤٨ ، فأمر بتدميرها وباع جميع سكانها في أسواق العبيد ، ولاقت مثل هذا المصير اثنتان وثلاثون مدينة من مدن خلكيديا .

ماذا تصنع اثينا بعد هذه الكارثة ودنو الخطر منها ؟ نظر ديموستين الى جمود مواطنيه وقعودهم عن العمل الحازم النشيط ، وامتناعهم عن تبني التدابير التي اعتقد انها كفيلة بتعزيز الدفاع الوطني وتأمين موارده وانشاء جيش قوي من المواطنين ، وتأخرهم عن الاشتراك في الحرب حتى ذلك الحين انتصاراً لأولنت ومدن شبه جزيرة خلكيديا ، فرأى ان الحرب في مثل هذه الظروف ، لا بد من ان تؤدي باثينا الى مثل الكارثة التي عانتها اولنت ومدن خالكيديا ، وان خير ما يصنعه إذ ذاك دعوة وطنه الى عقد معاهدة شريفة مع فيليب المكدوني تنقذه من ذلك المصير .

وكان ديموستين قد انتُخب عضواً في مجلس الخمسمائة ، فاخذ

يعلن فيه آراءه السلمية التي فرضتها عليه اوضاع بلاده ، إذ كان يعتقد بان المدن اليونانية لن تمد يد المساعدة لاثينا إلا إذا وجدت فيها شعباً ناهضاً وجيشاً قوياً ، وهو أمر لم يستطع تحقيقه بنضاله الدائب نحواً من عشر سنوات . وقد رأى ان عليه في سبيل نجاح سياسته ، التقرب بعض الشيء من خصومه القدماء وفي طليعتهم ايبول وإيخين . فانتُخب واحد عشر سفيراً لمفاوضة الملك فيليب لانشاء معاهدة بينهما ، وكان هؤلاء السفراء خيرة خطباء اثينا ورجال السياسة فيها ، ومنهم إيخين اكبر خصوم ديموستين في الماضي والمستقبل . وقد روى هذا كيف قابل الوفد الملك المكدوني وعدّد ما قاله كل منهم في الصداقة القديمة التي تربط بين اتيكا ومكدونية ، ووجوب التحالف بينهما على التعاون في ظل السلام ثم قال : ولما جاء دور ديموستين في الكلام ، ارهفت الآذان لسماع أقواله ، لما عرف من تهجمه على فيليب المكدوني ودعوته إلى نصرة المدن اليونانية التي حاربها ، فاذا به يرتج عليه ، ويضطرب ويتلعثم ... وعبثاً حاول فيليب تطمينه وتسكين جأشه فقد ظلّ مضطرباً لا يدري ما يقول . ووصف ايخين وداع الملك لهم ، وكيف وجّه خطابه لكل منهم ما عدا ديموستين .

وقد سلم الملك فيليب أعضاء الوفد رسالة إلى المجلس الأثيني العام ، تعرب عن صداقته للأثينيين ، ووقف ايخين وزملاؤه في المجلس يتحدثون عن جمال الملك وعذوبة حديثه وقوة ذاكرته ! ما عدا ديموستين الذي لم يشأ ، برغم رغبته الصادقة في عقد معاهدة السلام ، اطراء مواهب عدوه وابداء الاعجاب به على هذا الغرار .

واقترع المجلس بعد ذلك على بنود معاهدة التحالف والصداقة بين أثينا والملك فيليب ، على أن يتمتع كل منهما بحق الاحتفاظ بما يملكه. وكان هذا يعني التخلي للملك المكدوني عن كل ما استولى عليه منذ سنة ٣٥٧، فلم يعترض احد على ذلك ، حتى ديموستين . اذ رأى الجميع ان تخلي اثينا عن ممتلكات قد انتزعت منها فعلاً خير من انهيارها هي نفسها وما بقي سالماً من ممتلكاتها. ولكن ثمة خلافاً قد وقع اثناء تعيين الدول المحالفة لاثينا لاشراكها في هذه المعاهدة فقد اراد مندوبو فيليب ان يستثنوا من نعمة السلم مدينة فوسيدا ومدينة هالوس التسالية التي كانت تحاصرها الجيوش المكدونية ، فعارض ديموستين ذلك ولم تقبل اثينا التخلي عن حليفتيها القديمتين . فرضي ممثلو مكدونيا بحذف هذا البند من نص المعاهدة التي وضعوها ،ولكنهم لم يعترفوا بتينك المدينتين كحليفتين لاثينا تشملهما المعاهدة التي عقدت معها .

وعاد الوفد الاثيني الى مكدونيا للحصول على موافقة الملك على المعاهدة ، وبذل وسعه لانقاذ فوسيدا التي اقسم الفاتح على احتلالها ، وتراقية التي كان يحاربها وقد احتل قسما كبيراً منها ، بحيث كان كلما تأخر الوفد في طريقه الى الملك أصبح من العسير اقناعه بالتراجع عنها لاتساع سيطرته عليها يوماً بعد آخر . وقد كان هذا الامر مثاراً لخلاف نشب بين ديموستين وزملائه وهم في الطريق الى مكدونيا . فان اعضاء الوفد قد تلكأوا في سفرهم حتى كاد يقطع الرجاء من مهمتهم ، مما حمل الوطني الكبير على تأنيبهم بشدة . ويقول ايخين ان ديموستين قد اغلظ لرفاقه القول ،

آخذاً عليهم تهاونهم في قضية السلام التي يعملون من اجلها ، حتى امتنعوا عن مشاركته في الطعام والنزول معه في فندق واحد .

ولما اتيح لأعضاء الوفد أخيراً الاجتماع بالملك ، اختلفوا فيما يحدثونه به ، وأراد ايخين ايغار صدره على حلفائه أبناء طيبة ، أما ديموستين فلم يرَ ضرورة لذلك لئـــلا يجر على اتيكا الخطر الذي تتقيه . ثم اتفقوا على أن يتكلم كل واحـد منهم بما يريد ، وأبى ديموستين إلا أن يكون أول المتكلمين ، غير أن خطابه ، كما يدعي ايخين ، لم يكن موفّقاً ، ولم يتحدث فيه إلا عن أشياء معروفة ، أما ايخين فقد حاول ايغار صدر الملك على طيبة لاضطهادها مدن بيوتيا ، ثم رجعوا دون أن يحصلوا إلا على وعود شكلية من الملك بصدد المهمة التي ذهبوا من أجلها . فما كاد ديموستين يبلغ أثينا حتى قام في مجلس الخمسمائة بحملة شديدة على زملائه أعضاء الوفد . أما ايخين فقد خطب في المجلس العام مطرياً فيليب ومنوهاً بصداقته لأثينا وبوعده الصريح باعادة سيادتها على بحر ايجه ، والامتناع عن مهاجمـــة فوسيدا ، وانتزاع السيطرة على بيوتيا من أيدي الطيبيين ، فنهض ديموستين يحذر من فيليب ، ويعترض على التخلي عن ترموبيل وفوسيدا ، فوقف ايخين وفيلوكراتيس أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، وأخـذا يحولان دون وصول صوته الى الجمهور ، فلم يسمعه الحاضرون او لم يشاءوا الاصغاء اليه ، لان الآمال التي اثارها خطاب ايخين في نفوس الحاضرين لم تبق فيها مكاناً لحذر أو روية .

ثم قرأ فيلوكراتيس رسالة بعث بها الملك فيليب مع الوفـــد

الاثيني . وبرغم ان هذه الرسالة لم تكن تحتوي غير عواطف الود والمجاملة الشكلية ، ولم تذكر فيها فوسيدا ولا طيبة ولا مدن بيوتيا ، فانها أثارت حماسة الحاضرين . وفي غمرة هـذه الحماسة العابرة ، حمل فيلوكراتيس أعضاء المجلس على تبني مرسوم تسري بموجبه محالفة السلام التي تنازلت فيها أثينا للملك المكدوني عن كل ما وضع يده عليه من البلدان ، على ورثته من بعده ، واتخاذ قرار يهـدد الفوسيديين بانهم إن لم يسلموا هيكل دلفي إلى مجلس الامفيكتون ، فأن الشعب الأثيني سيرغمهم على ذلك !

وانتخب المجلس بعد ذلك وفداً ثالثاً لابلاغ الملك فيليب هذه النتائج . فكان الأعضاء المنتخبون هم أعضاء الوفدين السابقين أنفسهم ، إلا أن ديموستين اعتذر عن الاشتراك في هذه المهمة برغم الحاح قسم من أعضاء المجلس ، إذ شعر بأن أثينا لن تستطيع ، أمام تطور الظروف على هذا القرار ، تسيير الامور وفق مصلحتها ، والحدّ من نفوذ فيليب في بلاد اليونان الوسطى . وكذلك استعفى ايخين من تلك المهمة بحجة مرضه . ولكن ديموستين يزعم بأن الذي دفعه إلى البقاء في أثينا هو شعوره بأنه لا بدّ من أن تقوم فيها حركة معارضة .

والواقع ان هذه المعارضة لم تلبث أن قامت .. فان فالاسيوس رئيس فوسيدا ، الذي لم يعد ينتظر أية مساعدة من الأثينيين بعد القرار العدائي الذي حمل فيلوكراتيس المجلس الأثيني العام على اتخاذه ، قد بادر إلى تسليم فيليب البقاع المقدسة وانسحب منها مع جنوده ، فاستولى عليها الملك المكدوني وسلمها إلى أبناء طيبة .

فانهارت بذلك جميع الآمال التي اثارها ايخين في صدور الاثينيين . اذ وجدوا حلفاءهم يُسلّمون الى اعدائهم . وساد الذعر في أثينا ، فقرر المجلس العام الاستعداد للدفاع عن اتيكا ، ووضع النساء والأطفال والأرزاق في حماية الأسوار المنيعة ، والاحتفال بعيد هيراكليا داخل أثينا لا خارجها ... ولبثت الامة تنتظر ما تخبئه لها الأقدار . .

وفي هذا الظرف العصيب انتُدب ايخين لتمثيل أثينا في المجلس الامفيكتوني في فوسيدا ، فلم يستطع ، أو لم يحاول ، منع هذا المجلس الذي يسوده النفوذ المكدوني والطيبي والتسالي ، من اتخاذ عدّة تدابير تقضي باستعباد المدن المحالفة لأثينا ، ما عدا مدينة اباي ، وهدم أسوارها ونزع سلاحها وفرض الجزية عليها . وعاد ليوافق بعد قليل على طلب التساليين والمكدونيين من أثينا أن تعترف بانضمام الملك فيليب إلى المجلس الامفيكتوني محل فوسيدا ، كما اعترفت بذلك الدول الخاضعة له . ولكن ديموستين نفسه لم يعترض على هذا الطلب ، إذ لم يجد في الاعتراض عليه جدوى ، وذكّر المجلس بانه كان الشخص الوحيد الذي انكر على أثينا ان تتخلى عن فوسيدا خلافاً لمصلحتها وربما خلافاً للشرف أيضاً ، مقابل وعود واهية سرعان ما بدا بطلانها . ثم دعا المجلس الى التزام الأناة ، وحذّر من الاقدام على أيّ تدبير يعكر السلام . وقال ان الجميع سيقفون ضد أثينا إذا نشبت بينها وبين فيليب خصومة تتعلق بمكانته في المجلس الامفيكتوني ، ولكن الأمر كان على خلاف ذلك فيما لو انها حملت السلاح دفاعاً عن أيّ أمر شخصي لا

بجعل طابع العداء للمدن اليونانية الاخرى ، وانه لخطأ جسيم في تلك الظروف ان تعطي اعداءها الكثيرين حجة لاعلان الحرب عليها . فوافق المجلس على رأيه واعترف بالمقررات الامفيكتونية التي اتخذتها المدن اليونانية الاخرى .

غير ان ديموستين كان يعرف ان وطنه الذي مني بكثير من الكوارث لجمود التقاليد الأثينية ، وأنانية الأثينيين المترفين ، وخيانة بعض الحكام ، ودسائس الوصوليين والنفعيين من كل فئة ولون ، ما يزال يملك كثيراً من القوى المادية والبشرية التي يستطيع تعبئتها وتنظيمها ، وان في وسعه النهوض من عثرته بانتهاج سياسة يقظة حكيمة لا ترى في هذا السلام الذليل الذي فرض عليه فرضاً إلا وسيلة للتحرر وحافزاً على النهوض ...

فهل يستطيع الوطني الكبير السير بوطنه في هذا السبيل برغم الظروف العصيبة التي تحدق به ، وطوائف الجامدين والمتخاذلين والانانيين والمأجورين التي تجره الى الخراب ؟ لقد كان ديموستين يعتقد بان في امكانه ، بالاعتماد على عناصر الخير في الامة ، القيام بتلك المهمة الشاقة ، التي تؤدي الى تأمين استقلال وطنه ، وحريته السياسية والتجارية ، والعودة به الى المكانة السامية التي كان يتمتع بها الى عهد غير بعيد .

النهوض

•

استمرت فترة السلم الذي سمي « سلم فيلوكراتيس » سنوات عدة حاول فيليب خلالها غير مرة ، تارة بالوعيد وتارة بالتهديد ، حمل اثينا على الاستسلام لروح المعاهدة التي كرست هزيمتها ، ولكن الوطنيين الاثينيين كانوا يواجهون هذه المحاولات دائماً ، بمقاومة قوية وموفقة في اكثر الاحيان ، وقد استطاعوا ان يعيدوا لبلادهم ، الى حد غير يسير ، قوتها المالية والبحرية والعسكرية ، وان يكسبوا بعض الحلفاء والانصار . وكان الفضل الرئيسي في هذا كله يعود الى ديموستين .

فمنذ صيف سنة ٣٤٦ بدأت انتصارات ديموستين تترى . فقرر المجلس العام فرض ضريبة دائمة على الملاكين ، ولم تكن هذه الضريبة بكافية لتأمين حاجات الدولة ولكنها على كل حال اشركت المواطنين المترفين في نفقات الدفاع ، ثم اتخذ تدابير هامة تؤدي الى تخفيض الاعتمادات المخصصة للملاعب ، وبالتالي الى زيادة اعتمادات الدفاع الوطني .

وفي هذه المدة نفسها ، قدم ديموستين وخطيب آخر من المعادين لفيليب يدعى تيمارك ، اتهاماً بحق ايخين لتقصيره في تأدية مهامه

كسفير ، فأقام ايخين على تيارك دعوى اتهمه فيها بسوء السيرة ، واثبت التحقيق ادعاءه هذا ، فوقف حينئذ في المجلس حاملاً على تيارك وعلى ديموستين معاً . ومما أخذه على هذا حملته المستمرة على فيليب المكدوني وابنه الاسكندر ، واطرى الملك المكدوني منوهاً بأمله العظيم في ان تتحقق وعوده ، ولم يتورع عن دعوة وطنه الى التقرب منه . فحكم المجلس على تيارك ، ولكن ذلك لم يبرىء ساحة ايخين بل ترك التهمة الموجهة اليه معلّقة ، واحتفظ ديموستين بحقه في متابعة الدعوى حين يريد .

وكان ايخين قد بدأ يفقد سمعته كمواطن شريف ، وساعد على ذلك امران اساسيان ، احدهما ان المجلس العام كلفه الدفاع في المجلس الامفيكتوني عن مصالح اثينا في بعض الامور فاخفق في ذلك إخفاقاً شنيعاً ، وثانيه ان ديموستين قبض يوماً على مواطن يدعى انتيفون كان في عداد الموظفين الذين اقيلوا من الملاعب ، وقد شاع عنه انه وعد فيليب باحراق مخازن الاسلحة البحرية ، فقال ديموستين للمجلس العام « لقد وجدته مختبئاً في بيريه ، فأتيت به الى امام المجلس ، فدافع عنه ايخين وتوصل الى اطلاق سراحه . ولكن التحقيق ما لبث ان اثبت التهمة المنسوبة الى انتيفون فقبض عليه وحكم بتعذيبه واعدامه .

الا ان الدعوة للملك المكدوني كانت تنتشر مع ذلك في اثينا ، وكان من اكبر المتحمسين للتفاهم معه ايزوكراتس الذي سبق له ان اطرى الفاتح غير مرة ونددّ باعدائه الاثينيين . اما ديموستين فكان على العكس ، يسعى الى التفاهم مع المدن اليونانيـــة البيلوبنيسية

لمنع لاسيديمون من فرض سيادتها عليها والقضاء على نفوذ فيليب فيها . وقد ذهب الى ميسينيا وارجيا على رأس بعثة ارسلها المجلس الاثيني العام لهذا الغرض ، وقام بجملة خطابية كان يقول فيها : « ان الصداقة التي تُعقد بين الجمهوريات والطغاة ليست بالصداقة الوثيقة التي يُركن اليها . ماذا تريدون ؟ الحرية ؟ افلا ترون إذن ان القاب فيليب نفسها هي انكار لهذه الحرية التي تنشدون ؟ ان كل حاكم مستبد ، هو عدو للحرية ، وعدو للقانون . ألا فكونوا حذرين ... انكم تحاولون تجنب الحرب ، وأخشى ان تقودكم هذه المحاولة الى الوقوع تحت نيران الاستعباد » .

بيد ان ديموستين لم يستطع حمل الدول البيلوبونيسية على محالفة اثينا ، لانها لم تشأ التخلي عن صداقة الملك فيليب والشك في وعوده ، لما كان يقوم به الملك المكدوني من مناورات سياسية عظيمة ، لتفريق الدول اليونانية ، وعزل بعضها عن بعض ، والاستيلاء عليها واحدة بعد اخرى ، وتسييرها جميعاً في ركابه ... واذا كانت اثينا قد ظلت صامدة في وجه هذا التيار المكدوني ، برغم كثرة انصاره فيها ، فان ذلك يعود في الدرجة الاولى الى موقف ديموستين وأنصاره الذين كان نفوذهم يزداد شيئاً فشيئاً ، بحيث لم تقبل سنة ٣٤٣ حتى كان للحزب الذي يترأسه شأن عظيم في المجلس العام ، وأصبح قادراً على منعه من الخضوع لمطالب الملك المكدوني وشكاويه ، ولم يعد يقتصر على مهاجمة الدعوة المكدونية المجرمة في بلاده ، بل عاود حملته على أنصار فيليب من الاثينيين ، وهي الحملة التي كانت دعوى تيمارك قد أوقفتها الى حين ، متهماً اياهم بخيانة

بلادهم ، وبانهم اذ أقنعوا اليونانيين بالتخلي عن فوسيدا وتيرموبيل قد سلموا المكدوني طرق اتيكا وبيلوبينيسيا .

وفي خلال الشهور الثلاثة الاولى من تلك السنة ، قدم الى اثينا وفد فارسي ووفد مكدوني . فقد اقلقت الملك الكبير دسائس فيليب المكدوني في حوض المتوسط وآسيا الصغرى ، فبعث رسله الى اثينا يطلب تجديد « الصداقة التقليدية » معها ، فأجابته انها لا تحاربه الا اذا اعتدى على حرية البلاد اليونانية . أما الوفد المكدوني فقد جاء يعرض على اثينا استعداد فيليب لتعديل معاهدة فيلوكراتيس ، توكيداً لصداقته وحسن نيته ، فاقترح هيجيسيبوس تعديل البند القائل بان كلا من الدولتين « تحتفظ بما تملكه » بهذا النص : « ان كلا من الدولتين تحتفظ بما هو لها » لاعتقاده بان هذا التعديل يعيد الى اثينا الممتلكات التقليدية المشروعة التي كانت لها ، مثل امفيبوليس وغيرها من المدن التي استولى عليها الفاتح المكدوني ، لان هذه المدن تابعة لاثينا بقرار دول هلاّدة واعتراف الملك الكبير ، أما فيليب فليس إلا فاتحاً عابراً فيها . فوافق المجلس على هذا الاقتراح ، دون ان يعترض الوفد المكدوني ، ثم عاد هذا الوفد في صمت .

ولا ريب في ان هذه النتيجة لم ترض الملك ، واظهرت له انه لم يستطع اكتساب ثقة الاثينيين به .. لا سيما وان اثينا ما لبثت ان حاكمت فيلوكراتيس ، بطلب من هيبيريد الذي أتهمه بانه صنيعة فيليب ، مستشهداً على ذلك بانه ينفق اموالا مجهولة المصدر . وقد تدخل ديموستين في هذه القضية فقال ان فيلوكراتيس ليس وحده

الذي خان بلاده ، بل قد اشترك معه جميع السفراء الذين فاوضوا الملك على عقد المعاهدة معه ، وحمل على إيخين خصوصاً مؤكداً انه مباع لفيليب دون تحفظ ، فحكم على فيلوكراتيس بالاعدام ، ولكنه كان قد هرب من اثينا فنجا من العقاب . وما لبث ديموستين ان طلب اعادة النظر في الدعوى التي رفعها على ايخين في صيف سنة ٣٤٦ موجهاً اليه التهم التالية : ١ – انه قدم للشعب تقارير كاذبة ، ٢ – وجه اليه النصائح المضللة ، ٣ – خالف التعليمات التي كلف تنفيذها ، ٤ – أجرم بتباطؤه المشؤوم ، ٥ – ارتشى من الملك فيليب .. لان الرشوة وحدها هي التي تفسر تأييده المطلق لفيلوكراتيس سنة ٣٤٦ !

وقد شرح ديموستين هذه التهم بالتفصيل في خطاب كبير ، وحذر القضاة من ان يؤثر فيهم انصار إيخين اصحاب النفوذ ولا سيما اوبول . ثم دافع ايخين عن نفسه دفاعاً بليغاً ، ولكن بلاغته ليست هي التي برأته ، وانما هو مدين بذلك في الدرجة الاولى الى الظروف الخارجية التي ازدادت فيها عزلة اثينا وتعاظم نفوذ فيليب ، حتى اصبحت اتيكا اشبه بواحة في صحراء يمتد عليها سلطان الملك فلم يكن من اليسير على الاثينيين ان يثيروا غضبه بالحكم على اكبر نصير له بينهم . على ان حكم البراءة لم يتخذ مع ذلك الا باكثرية ضئيلة ، وكان بقية الاعضاء من مؤيدي وجهة نظر ديموستين .

وبقدر ما كانت الاوضاع الداخلية في اثينا تسير نحو الازدهار والتحسن وانتصار الروح الوطنية وتقوية الدفاع العسكري ، كانت الاوضاع الخارجية تزداد اضطراباً وحرجاً ، والخطر الذي

يحدق بها يدنو منها اكثر فاكثر ... ولكن الوطنيين الصادقين لم يقنطوا مع ذلك من انقاذ بلادهم ، فغادر ديموستين اثينا على رأس بعثة من اعضائها هيجيسيبوس وبوليوكتوس ، ليجوب مدن بيلوبونيسيا واحدة بعد اخرى ، محاولا من جديد محاربة النفوذ المكدوني فيها ، فتوصل مع رفاقه الى اثارة الرأي العام على الملك الفاتح ، واكتساب صداقة البيلوبونيسيين ، وعقد معاهدة تحالف بين اثينا ومسينا .

وفي هذا الوقت نفسه كان ديموستين واصدقاؤه يشجعون مقاومة نشاط فيليب المتعاظم في تساليا ، مما زاد التوتر بين الملك المكدوني والاثينيين ، ولكنه لم يقنط مع ذلك من قبولهم في النهاية بالاوضاع السائدة ، ومن تحطيم المقاومة الديموستينية التي ما تفتأ تعترض مشاريعه وخططه ، فجدد في ربيع سنة ٣٤٢ محاولة التقرب من من اثينا ، وحمل مندوبوه اليها وعداً باعطائها جزيرة هالونيز الصغيرة وهي احدى ممتلكاتها القديمة وكان قد حررها من القرصان واستولى عليها ، كما اقترح على الاثينيين عقد اتفاقات تجارية معه ، واشتراكهم مع مكدونيا في مكافحة القرصنة في بحر ايجه ، معلناً قبوله التحكيم في مسألة مدن تراقية التي استولى عليها منذ أربع سنوات ومسألة الحدود بين اراضي كارديا والممتلكات الاثينية في خيرسونيز .

فحارب ديموستين وهيجيسيبوس هذه العروض ، قائلين ان الهالونيز ليست لفيليب كي « يعطيها » لأثينا ، بل هي لهذه المدينة ويجب ان « يعيدها » اليها ، وطالبا المجلس العام برفض هذه الجزيرة « اذا كان الأمر هبة » وليس اعادة » كما طالبا برفض

التحكيم معلنين انه لا يمكن ان يكون بين اثينا وفيليب حكم غير متحيز لأحدهما ، عدا عن ان الحق فيما يطلب التحكيم بصدده ظاهر لا يحتاج الى جلاء ، وحذرا من الاشتراك مع فيليب في مكافحة القرصنة في بحر ايجه ، ومن عقد اتفاقات تجارية معه ، ثم حملا حملة قوية على البقية الباقية من انصار فيليب في اثينا قائلين انهم يستحقون عقوبة الاعدام .

وقد حمل الخطيبان المجلس على اجابة فيليب جواباً بهذه الروح ، فرأى الفاتح في هذا الجواب دليلاً على اخفاق دبلوماسيته نهائياً في اثينا ...

وفي هذا الوقت نفسه قام فيليب المكدوني بحملة جديدة في تراقية التي كان قد احتل فيها سنة ٣٤٦ عدة مراكز هامة ، فاقتربت جيوشه من شبه جزيرة خيرسونيز أخصب الممتلكات الاثينية وأحد معابر تجارتها الرئيسية ...

وكانت اثينا قد عززت قواها في شبه الجزيرة وأرسلت اليها قائداً ماهراً يدعى ديوبيتيس ، فاصطدم أول نزوله في شبه الجزيرة باهالي كارديا الذين زعموا انها لهم وليست لاثينا ، فحاربهم وقضى على مقاومتهم ثم هاجم مدينتهم كارديا فأمدهم فيليب باحد جيوشه زاعماً انهم حلفاء له ، فترك ديوبيتيس المدينة ولكنه ما لبث ان انتقم لنفسه بمهاجمة الشاطىء التراقي الخاضع لسيطرة مكدونيا وصادر بعض السفن التجارية المكدونية . فلما عاود فيليب حملته في تراقية طلب من اثينا أن تسحب ديوبيتيس وجيشه من الجزيرة ، فحمل انصاره في المجلس الاثيني العام على القائد البارع لأنه أضرم

نار العداء مع حلفاء اثينا ، وطلبوا تنفيذ طلب الملك . ولكن ديموستين قاوم هذا الطلب ، ولم يدافع عن اغلاط ديوبيتيس غير انه نسب الغزوات التي قام بها الى اضطراره الى المال ، لان اثينا لم ترسل اليه ما يحتاجه منه ، فمن أين يأتي باجور جنوده ؟ ثم طالب بتعزيز القوى العسكرية في شبه الجزيرة بدلاً من استقدامها ، لتعاظم الخطر الذي يهددها بين يوم وآخر . وجدد دعوته إلى بذل الجهود والتضحيات العظيمة للمحافظة على اثينا وانهاضها الى المنزلة الخليقة بها ، منددا كعادته باولئك الموسرين الذين يضنون بالمال اليسير في سبيل بلادهم ، وبعامة الاثينيين الذين يهملون واجب الدفاع عن وطنهم بانفسهم ، داعياً اثينا إلى ان تضرب للمدن الهيلينية مثلاً على الجرأة والقوة والانتصار ، يشجعها على المقاومة ويهيب بها الى الاتحاد ، مخاطباً مواطنيه بقوله : « انكم تنتقلون من الاجلال الى الاحتقار ، ومن الغنى الى الفقر المدقع . إذ ما هي في الحق ثروة الدولة ان لم تكن حلفاءها ، والثقة والعطف اللذين توحي بهما ، وهي الامور التي سلبت منكم »

ويقول بعد ذلك ان الاثينيين قد باتوا على نقيض فيليب المكدوني الملك القوي الذي يخشاه اليونانيون « والبرابرة » على السواء ، فهم منعزلون ومحتقرون . واذا كانوا يريدون حقاً حماية الانظمة الديموقراطية من عدوها الألد ، وحماية موانئهم ومعامل سفنهم ومناجم الفضة التي يملكون ، وأرزاقهم ومواردهم العظيمة ، فانما ينبغي لهم ان يقلعوا عن عاداتهم المشؤومة ، ويتخلوا عن تراخيهم الذميم ، ويدفعوا المال بسخاء ، لانشاء جيش قوي مستعد ، ليس

لاستعباد الدول الهيلينية كجيش فيليب ، بل لانقاذها وتحريرها . كما ينبغي لهم القيام بدعوة ديبلوماسية واسعة في جميع البلدان الاغريقية لتوجيهها في طريق الخلاص ، وتطهير اثينة من الخونة والانتهازيين ، اولئك الذين ما فتئوا يبثون الدعوة المجرمة للملك المكدوني ويناصرون مشاريعه الرامية إلى استعباد وطنهم ، ولم يتورعوا عن مهاجمة قائد من اكبر قواد اثينا وطلب استدعائه وتسريح جيشه ، فان الاثينيين لن يستطيعوا الانتصار على اعدائهم الخارجيين إلا اذا بادروا إلى معاقبة اعدائهم في داخل بلادهم .

ويبدو من هذا الخطاب ان الاصلاحات العسكرية والمالية التي ما فتىء ديموستين يدعو اليها منذ سنة ٣٥١ لم تكن قد تحققت حتى عام ٣٤١ إلا على قدر يسير . والخطيب الكبير يرجع الى ذلك في الدرجة الاولى ، ضعف نفوذ اثينا في اليونان وامتناع دولها عن محالفتها ومساعدتها . ولكنه لا يكتم ابتهاجه لبقاء خيرسونيز ، أجمل ممتلكات اثينا وطريق القمح اليها ، محتفظة بسيادتها ومناعتها فضل ديوبيتيس وجيوشه الذين بحمايتهم لها انما يساهمون في حماية اثينا نفسها .

ويساور ديموستين الذعر ، بعد شهرين آخرين سجل فيهما الفاتح انتصارات جديدة ، ولم تحقق اثينا اثناءها شيئاً من نصائحه الثمينة ، فيلقي في المجلس العام خطاباً عنيفاً يقول فيه : « لو ان جميع الخطباء الذين تعاقبوا على هذا المنبر قد تعمدوا اعطاء المقترحات الفاسدة ، ولو انكم انتم قد تعمدتم اتخاذ التدابير الضارة ، لما بلغت اثينا حالة أسوأ من الحالة التي تعانيها اليوم » . ثم

بعدد انتصارات فيليب وخطرهـــا على بلاده ، وبعدد مساوىء مواطنيه وتقاعسهم عن العمل الجدي لانقاذ وطنهم ، وبردد نصائحه السابقة في اصرار أشد وتعنيف أمرّ ، ويحمل على انصار فيليب وعلى أعضاء المجلس الذين يتباطأون في معاقبتهم أقسى العقاب ، ويقول ان الوسيلة الوحيدة لمعالجة هـذه الحال المحزنة هي الارادة الحازمة على القيام بالاعمال الضرورية التي اشار اليهـــا والتي لاغنى عنها . فاثينا لم تقم حتى ذلك التاريخ بما هو ضروري ، وهـذا هو الأمر الوحيـــد الذي يمنع الخطيب الكبير عن اليأس من نهوضها : « فلو انكم قد قمتم بكل ما يجب عليكم ، ثم كانت الحال على ما هي عليه الان ، لما بقي ثمة أمل في تحسن الوضع الذي نعانيه . ولكن فيليب قد انتصر على اهمالكم وتراخيكم ، ولم ينتصر على الجمهورية . كلا ، انكم لم تُغلَبوا ، لانكم لم تحركوا ساكناً لتكونوا انتم الغالبـــين » .. « ان تقاعسكم لا يشجعه الا تقاعس بقية اليونانيين أمام طغيان فيليب . فاننا اذ نرى هـذا الطغيان ، نحن اليونانيين في كل دولة يونانية ، لا نتبـــادل الوفود للبحث في التحرر منه ، بـــل اننا لا نسخط عليه ولا نفكر في عاقبته . ان لنا قلوباً صغيرة ... فنحن مـــا زلنا نتحصن وراء خنادق مدننا ، ولم نستطع ، حتى اليوم ، ان نقوم بشيء نافع ، شيء ضروري لا بد منه ، هو الاتحـــاد ، وتأليف جامعة تتناصر وتتعاون . اننا ندعه يكبر ... وكل دولة منا تعتقد انها تربح الوقت الذي يستغرقه هلاك الاخرى ، فتهمل التفكير في الوسائل التي تنقذ بلاد اليونان كلها . وما مثَل الدول الهيلينية التي تنظر

كل منها الى آلام جارتها بغير اكتراث ، الا كمثل اناس يقفون تحت سيل من البَرَد ، ويتمنى كلُ واحدٍ منهم ان يسقط على رأس اخيه ولا يسقط على رأسه ،دون ان يحاولوا تجنبه جميعاً !، ولكن اذا شاءت بعض الدول اليونانية الاذعان للعبودية ، فان من واجب الاثينيين ان يكافحوا من أجل الحرية .. حريتهم وحرية هلاّدة كلها .. وان ديموستين لواثق من انه متى اصبح لاثينا جيش قوي قادر على الصمود في وجه الطاغية ،اسرعت الدول اليونانية الاخرى الى السير في موكبها المناضل الظافر ..

والواقع ان الوطني العظيم لم يكن قانطاً من النجاح ،وعلى الرغم من ان حالة اثينا لم تكن ترضيه ،فقد احرز حتى ذلك التاريخ انتصارات عدة، اذا استطاع واصدقاءه ان يحطموا محاولات فيليب لجر اثينا الى تيار سياسته وحملها على تنفيذ اغراضه ، وتوصلوا اخيرا الى تحويل الفائض من الدخل العام بكامله الى الاعتمادات العسكرية ،وارغموا فيلوكراتيس على الهرب من اتيكا واستصدروا حكماً بأعدامه ، وضربوا نطاقاً من الحذر حول ايخين واصحابه من أنصار فيليب ، وانشأوا قوة عسكرية لا يستهان بها بقيادة قائدين كبيرين هما خاريس وديوبيتيس وجعلوا من الاسطول الاثيني في بحر ايجه اسطولا كبيراً قوياً ، واعادوا لوطنهم بعض نفوذه القديم في بعض الدول المجاورة له .

ولكن من الواضح ان هذا كله لم يكن كافياً لجعل اثينا في المستوى الذي ينبغي لها ، متمتعة بالقوة التي تؤهلها للوقوف في وجه فيليب وجيوشه الجرارة المنظمة المجهزة خير تجهيز والتي اعتادت القتال في كل ظرف وكل مكان . ومن هنا كان سعي ديموستين

وانصاره مستمراً لمواصلة السير بوطنهم نحو القوة والرفعة اللتين يريدونهما له .

وقد شرح ديموستين ذلك شرحاً دقيقاً في خطاب القاه في صيف سنة ٣٤١ قال فيه : ان الاثينيين يظلون جامدين ، بعضهم مكتف بانه قد قال ما ينبغي له قوله ، وبعضهم مكتف بانه قد سمع ما يجب سماعه ، وليس يعمل منهم احد عملاً جدّياً حازماً ، مؤثرين الرخاء الوقتي الذي ينعمون به على كل تضحية ، مستنيمين الى اقوال أولئك الخونة دعاة السلم الذليل الذين يخوفونهم من نفقات الجيش الكبير الذي يطالب الوطنيون بانشائه ، ويتهمون هؤلاء بانهم يريدون تبديد أموال اثينا ... بينا يسير فيليب من فتح الى آخر ، وليس هدفه الرئيسي الا الوصول الى اثينا واستعبادها ، لانه يريد بسط سيطرته على البلاد اليونانية كملك مستبد ، وليس يستطيع عرقلة مساعيه في هذا الصدد غير اثينا وحدها ، فهو لذلك عدوّها الالد ، عدوّها الذي يكره أرضها وسماءها ، بل يكره من ابنائها حتى اولئك الذين يبتهجون بانهم قد نالوا حظوة عنده : « ان ابغض ما يبغضه فيليب ، وأخوف ما يتخوفه ، هو حريتنا ، هو نظامنا الديموقراطي ، وفي سبيل القضاء على هذه الحرية وهذا النظام ، ما فتىء ينصب الشراك ويدبر المكائد . هو يعرف حق المعرفة ، أنه لو أخضع بلاد الاغريق بامرها ، وبسط سلطانه عليها من اقصاها الى أقصاها ، لما جعله ذلك منها في جناح أمن ، ما دامت ديموقراطيتكم سالمة . وهو يعرف ايضاً ، انه اذا خانته الاقدار يوماً ، وقلب له الدهر ظهر المجن ،

فجميع هذه الشعوب التي اخضعها عنوة ، تبادر الى خلع نيره والانضواء تحت لوائكم ! » .

ويبدو ان نفوذ ديموستين واصدقاءه قد تعزز بعد هذا الخطاب وشاعت مبادؤه اكثر من أي وقت آخر ، فاستطاع ان يرسل الى اريتريا حملة طردت انصار الطاغية المكدوني منها ووطدت النظام الديموقراطي فيها ، واخذ يبدي نشاطاً دبلوماسياً عظيماً لعقد المحالفات السياسية بين وطنه وبعض الدول الاغريقية ، ويسافر من مكان الى آخر متصلاً ، تارة في السر وتارة في العلن ، بكبار الوطنيين اليونانيين ... فلم تقبل سنة ٣٤٠ حتى أعلن في المجلس العام ان حلفاً عظيماً يتألف بين الاثينيين والاوبيين ، وان جميع البيلونيسيين والاركانيين ، قد تألبوا بفضل جهوده على الطاغية فيليب . ثم استطاع اقناع كورنث ولوكاد و كورسير ، بالانضمام الى الكتلة التي الفها الاثينيون والاوبيون .

الا ان التحالف مع الاوبيين وقسم من مدن بيلوبينيسيا واليونان الغربية ، لم يكن النتيجة الوحيدة التي أدى اليها نشاط ديموستين الدبلوماسي ، فانه قد أحرز هو وانصاره نجاحاً كبيراً في آسيا الصغرى ، إذ ان الخطيب الكبير قد شخص الى بيزنطية ولاقى فيها ترحيباً عظيماً برغم ما لفيليب من أنصار فيها ، واستطاع اقناع البيزنطيين بان دنو الجيش المكدوني من البوسفور يهدد استقلالهم ، فصالحوا الاثينيين متناسين عداءهم القديم لهم ، واذا كانوا لم يقطعوا العلاقات التي تربطهم بالملك المكدوني رسمياً ، فان المحالفة المعقودة بينهم وبينه فقدت كل قيمتها . وقد كان هذا

التحول انتصاراً كبيراً ، لما للبوسفور من أهمية عظيمة بالنسبة الى تموين بلاد اتيكا .

وقد حقق مثل هـذا النجاح في الدردنيل، اذ اكسب أثينا صداقة ابيدوس التي حاربتها يوماً ، والتي تستطيع المساهمة في سدّ المضيق بوجهها .

و كذلك توصل الى إعادة الصلات الودية التي كانت تربط بين اثينا وروديس وخيوس ، واذا كانت اثينا لم تستطع عقد اتفاق أو حلف معها، فقد كان لعودة الصداقة بينها وبينها الى سابق عهدها، شأن كبير . ثم أرسل وفداً لمفاوضة ملك فارس على التحالف مع اثينا ضد الملك فيليب ، فرفض اوكوس اجابة هـذا الطلب ، ولكن ديموستين لم يقنط من الوصول الى اتفاق معه .

وهكذا استطاع ديموستين وانصاره، بوطنيتهم الصادقة وسعيهم الدائب ومقاومتهم دعاة القنوط والتخاذل ، ان يخرجوا بوطنهم من العزلة التي كان يقبع فيها ، وان يكسبوه محالفات وصداقات عظيمة الاهمية ، الى جانب ما حققوه من اصلاحات داخلية ، مما حمل المجلس الاثيني العام على اتخاذ قرار بمكافأته على مساعيه باكليل ذهبي ، وبأن يسلم هـذا الاكليل في المسرح الكبير في خلال اعياد نيسان سنة ٣٤٠ .

وبينما كان ديموستين يقوم بتلك المساعي الجبارة لانقاذ بلاده ، كان الملك فيليب ينجز اخضاع تراقية ويستعد لمهاجمة خيرسونيز ، وقد طلب من بيرنت وبيزانطية مساعدته في عدوانه هذا ، فأبتا السير في ركابه برغم ان الثانية تربطها به رابطة التحالف ، فاعتزم

محاربتها والاستيلاء عليها ، لقطع الطريق على قوافل القمح من الوصول الى اثينا ، وحرمان هذه المدينة من قواعد حربية وملاجىء عديدة تستطيع الاستفادة منها في حالة الحرب . وبادر الى تسيير اسطوله الى بيرنت ، وارسل من اجل حمايته جيشاً قوياً الى خيرسونيز لاخضاع الجيش الاثيني فيها . وأراد تبرير اعتدائه على هذه الارض التابعة لأثينا ، فوجه الى المجلس العام رسالة يحتج فيها على ما يقوم به الوطنيون فيها من مساع معادية له ويحمل على ديموستين وخطبه واعماله دون ان يسميه .

وكان هذا الاحتجاج والاتهام في لهجتها وحججها أشبه بحملات انصاره في أثينا على ابطال الحركة الوطنية فيها ، ولكن هؤلاء لم يجيبوا عليها ، لان الاعمال الحربية التي تدور في المضايق كانت اجدر باهتمامهم من كل شيء آخر ...

وقد صمدت بيرنت ، وتلقت النجدات الهامة في المال والرجال والعتاد ، من بيزنطية وملك الفرس ، فتحقق حلم ديموستين بنشوب الحلاف المسلح بين فيليب المكدوني والملك الكبير ، فان اوكوس ، وان لم يتحالف مع اثينا كان يخدم مصالحها بمساعدته بيرنت .

وطال حصار بيرنت دون ان يستطيع فيليب القضاء على مقاومتها ، فأبقى امامها قسماً من جيشه ، وسار الى بيزنطيه فضرب الحصار عليها في آب سنة ٣٤٠ ، وعلى الرغم من ان اثينا لم تساعد بيزنطية مع ان في سقوطها خطراً كبيراً عليها ، فان فيليب المكدوني قد هاجم اسطولها الحربي الراسي في البوسفور لحماية قوافلها التجارية ، ولما لم يستطع النيل منه هاجم هذه القوافل

واستولى على ٢٣٠ سفينة منها مثقلة بالمؤن والبضائع المختلفة ، ووجه الى المجلس الاثيني رسالة اخرى مترعة بالشكاوى لتبرير عدوانه .

ولكن كان واضحاً ان الاعتداء الذي اقدم عليه لا تسوّغه حجة ما من تلك الحجج الواهية التي تذرع بها ، فالقى ديموستين ، جواباً على تلك الرسالة ، خطاباً ملتهباً فقد نصه . ثم عمد الاثينيون في تشرين الاول سنة ٣٤٠ ، عملاً باقتراح الخطيب الكبير ، الى النصب الذي نقشت عليه بنود معاهدة السلام والتحالف بين اثينا ومكدونيا ، فحطمته ... فقضي بذلك على تلك المعاهدة الواهية التي كانت تصل بين البلدين .

معركة على ابواب أثينا

•

هل كانت أثينا تملك الوسائل اللازمة لتأمين انتصارها في ذلك النزاع الذي نشب بينها وبين فيليب المكدوني ، أو لمقاومة هذا الملك القوي البأس مقاومة جدية على الأقل ؟

لقد كان ديموستين يعتقد بأن أثينا تملك تلك الوسائل ، أو تستطيع توفيرها ، إذا صحّ العزم من أبنائها على النضال والانتصار. وكان يعتمد على روابط الصداقة التي عقدها مع فريق من الدول الأغريقية ، وعلى روح الوطنية التي أضرمها في صدور مواطنيه ، وعلى الاصلاحات الكثيرة التي حققها حتى ذلك التاريخ ، ومنها قانون سماه خصومه بقانون الثلاثمائة ، وهو يقضي على المتمولين الثلاثمائة الكبار في أثينا ، بتأمين نفقات الاسطول الأثيني الحربي الذي يعدّ أكبر أساطيل الأغريق ، وقد أثار هذا القانون سخط خصومه وحاول المتمولون اغراءه بمقادير كبيرة من المال مقابل الامتناع عن تقديمه للمجلس أو الدفاع عنه ، فأبى إلا تحقيقه وتنفيذه.

وما كادت معاهدة سنة ٣٤٦ تلغى حتى انصرفت أثينا الى الاهتمام باسطولها الحربي ، في الدرجة الاولى . ولم يقبل ربيع سنة ٣٣٩ حتى كان لديها اسطول عظيم اهدى ديموستين أحد

مراكبه الحربية من ماله الخاص ، فعُهد بقيادته الى سيفيسوفون وفوسيون ، وغادر بيريه الى بيزنطيـــة فاشترك في الدفاع عنها ببسالة ، حتى اضطر فيليب المكدوني الى التخلي عن حصارهـــا ومغادرتها خائباً في شهر أيار سنة ٣٣٩، وليس هنالك نص يدل على ان الفرس قد اشتركوا مع الأثينيين في الدفاع عنها .

وهكذا رأى ديموستين ان نشاطه الدبلوماسي والتشريعي ، قد توّج بانتصار عظـــيم ، إذ تحررت بيزنطية وانتصر الاسطول الأثيني الذي يرجع فضل انشائه الى حماسته وبلاغته واصراره ، وعادت المواصلات بين اتيكا والبوسفور الى حالها السابقة من الأمن ، ونجت خيرسونيز والدردنيل من السيطرة المكدونية .

ولكن بينما كانت أثينا وحليفاتها تحطم هجوم فيليب المكدوني على بيزنطية ، كانت بلاد اليـــونان الوسطى مسرحاً لأحداث جسام ... فقـد وافق في شهر نيسان سنة ٣٣٩ ، موعد الدورة السنوية الثانية للمجمع الامفيكتيوني في دلفي ، وكان ديموستين وانصاره منصرفين الى الاهتمام بالحرب البحرية التي تخوضها بلادهم ، فأوفد المجلس الأثيني الى دلفي اربعـــة مندوبين كان اثنان منهم عدوين لدودين لديموستين هما ايخين ومبدياس . فاقترح الامفيسيون في هذا المجمع الزام أثينا بتعويض قدره خمسون وزنة لانهـــا وضعت على جدران الهيكل الجـــديد قرباناً يذكّر باتفاق الطيبيين مع الملك الكبير سنة ٤٨٠ - ٤٧٩ ، فرجا المندوبون زميلهم ايخين الدفاع عن قضية أثينا ، فما كاد يبدأ خطابه حتى اقترح أحد الامفيسيين طرد الاثينيين من الهيكل لأنهم ملعونون ،

وذكّر بالحلف الاثيني الفوسيدي . فغضب ايخين وهاجم المتهمين ، وحمل على انتهاكهم حرمة سهل سيرّا ، فأثارت لهجته جموع الحاضرين ، وبادر قسم منهم الى تهديم المنازل التي بناها الامفيسيون في سهل سيرّا ، ثم اجتمع اعضاء المجمع وقرروا الاجتماع في تيرموبيل قبل انعقاد المجمع الامفيكتيوني التالي لتقرير العقاب الذي يجب انزاله بالامفيسيين للجريمة الدينية التي ارتكبوها .

وقد أدت هذه الامور إلى حرب مقدسة سُلّمت قيادتها الى فيليب المكدوني ، فأعاد ذلك إلى الملك نفوذه الذي انهار دفعة واحدة على اثر الحرب الخاسرة التي خاضها في ربيع سنة ٣٣٩ .

ويذهب بعض المؤرخين الى ان ايخين كان مدفوعاً من قبل فيليب وانصاره ، لجرّ المناقشات الدينية في دلفي الى النتيجة التي انتهت اليها . وقد اتهمه ديموستين بذلك صراحة ، قائلاً ان فيليب المكدوني ، لما رأى ان سيادة اثينا في البحر لا يمكن منافستها والتغلب عليها ، وان مهاجمة اتيكا براً متعذرة عليه اذا لم يدعمه التساليون فيها ويسمح له الطيبيون باجتياز بيوتيا ، قد لجأ الى الخطة الوحيدة التي تكسبه تأييد هؤلاء واولئك ، بحجة العمل في سبيل اغراض عامة ، لا في سبيل أغراض شخصية مجرمة ، وليست هذه الخطة الا اثارة الحرب الدينية ، على ان لا يكون المحرض عليها احد مندوبيه أو مندوبي حلفائه ، لئلا يوقظ ذلك الشك لدى الطيبيين والتساليين وغيرهم من الاغريق .

ولكن هذه التهمة لم تثبت على ايخين ، بل ان الاثينيين قد برروا خطابه ، ولم يلبث مجلس الخمسمائة ، والمجلس العام ان صدقا

قرار المجمع . وعبثاً اعترض ديموستين ، واحتجّ ، ولاحق خصمه بتهمة الخيانة العظمى ، حتى عجب قوم من موقفه هـذا ، ونسبوه الى البغض الشخصي الذي يضمره له . ولكن الواقع ان ديموستين قد ذعر لرؤية الحوادث وهي تتطور تطوراً يهدم كل ما بناه مع اصحابه في خلال سنوات طويلة من النضال العنيد والعمل الجاهد، ولدنو الحرب فجأة من بلاده ، وانتقالها الى حرب برية مع انها كانت تدور دائماً بعيداً عن اثينا وكانت معاركها في اكثر الاحيان معارك بحرية ، لان الوطني الكبير كان يعرف جيداً ان قوى فيليب البرية عظيمة جداً لا تستطيع قوى اثينا الصمود امامها وقتاً طويلاً .

ومن هنا كان غضبه واحتجاجه ، واتهامه ايخين بالتآمر مع فيليب على اضرام شرارة الحرب الدينية في بلاد اغريقية ، كي يستغلها عدو اثينا في تحقيق المشاريع العدوانية التي لم يستطع الوصول اليها ، فأخذ يحذّر مواطنيه من ان يؤخذوا بهذه المكيدة ، ومن ان يدعوا الحرب البرية تقترب من بلادهم وعلى رأسها ذلك العدو العنيد ذو الجيوش الجرارة المنظمة المدربة على القتال في جميع الفصول. ولما رأى ان المجلس العام مصر على ارسال مندوبي اثينا الى اجتماع تيرموبيل ، عمد الى استصدار قرار سري من مجلس الحمامة وضع نصه بنفسه واحتال فيه احتيالاً ظاهراً لمنع أثينا من ارسال مندوبيها الى ذلك الاجتماع ، ومنعهم ان ذهبوا اليه من الاشتراك في مناقشاته أو ابداء أيّ رأي فيه . ثم حمل هذا القرار الى المجلس العام ، بعد ان تأكد من انصراف كثير من المجتمعين

فيه ، وحمله على الموافقة عليه .

وهكذا عُقد الاجتماع الديني في حزيران سنة ٣٣٩ دون ان يحضره مندوبون من أثينا ، كما ان طيبة قد تخلفت عن حضوره ايضاً لعدم رغبتها في محاربة أمفيسا ، غير ان امتناع أثينا وطيبة عن الاشتراك فيه لم يمنع المندوبين الذين حضروه ، عن المضي في الامر الخطير الذي اجتمعوا من اجله ، كما رجا ديموستين ، فقرروا مهاجمة المدينة الكافرة بقيادة كوتيفوس ، ولكن اكثر الدول اليونانية ما لبثت ان تخلفت عن تنفيذ هذا القرار ، متأثرة بموقف أثينا وطيبة ، فاخفقت الحرب التي أعلنت على أمفيسا ، وساعد على اخفاقها ان طيبة قد أغضبها استبدال الحامية التسالية في نيكايا بحامية مكدونية ، فعمدت الى طردها والاستيلاء على المدينة ، وسدت بذلك ، بوجه التساليين الذين يؤلفون القسم الاعظم من الجيش الامفيكتيوني ، الطريق الى امفيسا .

إلا أن المجمع الامفيكتيوني ما لبث ان قرر في دورته التسالية التي عُقدت في ايلول سنة ٣٣٩ ، قبل موعدها المألوف بشهر واحد تأليف حملة جديدة وتسليم قيادتها الى الملك فيليب . فاسرع هذا بالزحف الى اليونان الوسطى ، واستولى على سيتينون ، وبدلاً من ان يتابع سيره الى لوكريدا الامفيسية اجتاح فوسيدا واحتل ايلاته أهمّ مدنها ، وحصنها تحصيناً قوياً ، وبذلك أصبح في وسعه الزحف الى بيوتيا ومنها الى اتيكا .

أرتاع الاثينيون لهذا النبأ ، وتولتهم الحيرة ، ولم يجرأ أحد خطباء المجلس العام على معالجة هذا الامر الخطير ... لقد كان جميع

القواد والخطباء مجتمعين هناك ، ولكن في ذلك اليوم العصيب ، لم تكن الشجاعة لتكفي وحدها ، ولم تكن الوطنيـــة لتكفي وحدها أيضاً ... بل كان ثمة حاجة أيضاً إلى رجـــل قـد تابع الحوادث منذ البدء ، ودرس سلوك فيليب ومشاريعـه ، وعرف أغراضه ومراميه ، وتنبأ بها قبل أي انسان آخر . مثل هذا الرجل وحده ، كان في وسعه أن يخاطب الاثينيين ذلك اليوم ، وأن يخرجهم من حيرتهم وترددهم . والرجل الذي توافرت فيه هـــذه الصفات هو ديموستين . وقد وقف الوطني العظيم فتكلم في افاضة وبادرة ومهابة ، فأسمع وطنه صيحة الكبرياء الوطنية ، وأضرم في قومه شعلة العزة القومية ، وأعاد إلى أثينا سكينتها ورباطة جأشها ، ودعاها إلى محالفة طيبة عدوتها القديمة ، والتعاون معها على صـــد المستعمر الاجنبي ...

فألف المجلس الاثيني بعثـة وأرسلها فوراً إلى طيبـــة ، وأوفد فيليب إلى هذه المدينة في الوقت نفسه بعثة مكدونية ... فكان الصراع بينهما عظـــيما ، لما للملك المكدوني في طيبة من انصار ما كادوا يسمعون صليل سيفه في اغريقية حتى استعـــادوا ثقتهم به واخذوا يدعون له بحماسة اعظم من قبل ، ولما بين اثينـا وطيبة من ضغائن استمرت ثلاثين سنة تقريباً ..

وقد دعا رُسُل الملك أبناءَ طيبة ، الذين يرتبطون معه برابطة التحالف ، الى مساعدته في محاربة اتيكا مقابل وعود عظيمة .. ولكن ديموستين الذي ذهب على رأس البعثة الاثينية ، كان ابلغ حجة واحكم رأياً وانفذ صوتاً الى القلوب ، وقد حمل مجلس طيبة

على التحالف مع اثينا ، وعاد الى وطنه ظافراً بعد ان عقد ميثاق الصداقة بين تينك المدينتين اللتين طالما فرقتهما الخصومات والحروب ، راجياً ان يؤدي التكتل الذي تمّ بفضله بين الاثينيين والطيبيين والايبيين وقسم من البيلوبينيسيين ، الى انقاذ بلاده وانقاذ اغريقية من الكارثة التي احدقت بها ..

وأكبر الاثينيون مرة اخرى جهود الوطني العظيم ، ووطنيته المثلى ، فمنحه المجلس في نيسان سنة ٣٣٨ اكليلاً ذهبياً ثانياً ... وبذلك أغدق عليه مواطنوه غاية ما في وسع المعجَب من الاعتراف بعلو الهمة وشرف المقصد ونبل الضمير ..

بيد ان الحوادث المقبلة ما عتمت ان أخلفت آمال ديموستين مرة اخرى .. فان المعارك التي خاضتها بلاده وحلفاؤها وانتصرت فيها اول الأمر انتصارات باهرة ، وكبدت الملك فيليب فادح الخسائر .. ما لبثت ان تحولت لمصلحة المكدونيين ، بخدعة حربية قام بها الملك فاخذ بها القائد الاثيني شاريس والقائد الطيبي تيبان بروكسين ، وأدت الى انتصارات كبيرة أحرزها الفاتح .

ثم وقعت المعركة الحاسمة في خيرونه في ايلول سنة ٣٣٨ ، فاندحرت اثينا وحليفاتها ، وقتل عدد كبير من جنودها واسر عدد اكبر ، واحتل الفاتح طيبة فعهد بادارتها الى انصاره فيها ، ونفى أو قتل جميع خصومه . ثم زحف الى اثينا لاحتلالها أيضاً ، فبادر رؤساء الحزب الوطني هيبيريد وليكورغ ، وديموستين الذي عاد من ساحة القتال مع الفئة القليلة التي استطاعت النجاة ، الى تعزيز دفاع المدينة ومنطقتها التي تملك حصوناً قوية واسطولا عظيما

لم يمس ، واتخذ المجلس بوحي هذا الحزب مقررات هامة منها تجنيد المواطنين الذين لا تشملهم الخدمة العسكرية الاجبارية ، واعادة الحقوق المدنيـــة لمن نزعت منهم مثل المحكومين ، ولمن كانوا محرومين منها مثل الاجانب ، واشراك العبيد في الدفاع عن المدينة مقابل وعد بتحريرهم .

ونشط ديموستين الى العمل كما لم ينشط في اي وقت آخر ، فكان يحمل المجلس على اصدار المقررات الهامة واحداً بعد آخر ، ويشرف بنفسه على تنفيذها ، ويكلف كل امرىء المهمة التي يحسن القيام بها ، ويحث الجميع على التضحية المستمرة باموالهم وأنفسهم وكفاياتهم في سبيل وطنهم ، مقدماً المثل على ذلك بنفسه ، واهباً لحاجات الدفاع كل ما يملكه من وقت ومال وارادة عارمة وعزيمة لا تُغلب .

ولكن هذه الجهود العظيمة لم يُتح لها ان توضع موضع العمل ، لان فيليب المكدوني الذي أدرك أيّ عناء سيصيبه في حصار مدينة كأثينا لا تنقصها القوى والمؤن والحصون المنيعة ، وما قد يتعرض له من أذى الاسطول الاثيني الرابض في شواطئها – ما لبث ان لجأ الى الطرق الدبلوماسية التي اعتاد الالتجاء اليها في مثل هـــذه الحالة ، بغية اخضاع اثينا لعبوديته دون مجابهة الصعوبات الـــتي تعترض افتتاحها عنوة ، فارسل اليها وفداً يدعوها الى السلم مقابل شروط ووعود ليست من مصلحتها في شيء ، إلا ان غياب ديموستين عن اثينا في ذلك الحين لانشغاله بدعوة الدول المحالفة لها الى نصرتها ، وخوف السكان من سقوط مدينتهم في يد الفاتح وتعرّضها للخراب ، قد عزز موقف الاثينيين الموالين لفيليب وفي طليعتهم ديماد والجين

وفوسيون ، فتولوا امر تلك المفاوضات بانفسهم ، وهـــادنوا الملك المكدوني على ان تبقى بلاد اتيكا مستقلة ديموقراطية ، وتبقى لها أكثر ممتلكاتها، و تعطى مدينة اوربوس مقابل الخسائر التي تكبدتها.

تلك هي النواحي الايجابية التي أغرت الاثينيين بعقد الصلح ، اما النواحي السلبية التي انكرها ديموستين حين عودته الى بلاده، وحمل عليها بعنف ، فهي بقاء الجيش المكدوني على حدود اتيكة الشمالية يهددها دائماً ويزحف عليها متى شاء ، وإثارة الاحقاد من جديد بين اثينا وطيبة لانتزاع اوربوس من هذه واعطائها لتلك ، وجعـــل الاسطول الاثيني الذي كان حتى ذلك التاريخ سيد البحر، تابعـــاً لاسطول فيليب، وخسارة خيرسونيز أخصب ممتلكات اثينا واحسن اسواقها وطريق القمح اليها .

العصيان

•

لم يكد يستتب ذلك السلم الذليل الذي عقده ايخين وديماد مع الملك فيليب، حتى استعاد انصاره نفوذهم وجرأتهم، وأخذوا يوجهون اسوأ التهم الى الخطباء الذين عرفوا بعـــدائهم للفاتح المكدوني، ولا سيما الى ديموستين، حتى لقـد مرّ وقت لم يكن ينقضي فيه يوم واحد دون أن يُدعى فيه ذلك الوطني الكبير الى المحكمة للاجابة على تهمة موجهة اليه، وكانت اكثر هذه التهم تدور حول الخيانة العظمى. ولكن جميع هذه المحاولات تحطمت وباءت بالخسران، وخرج ديموستين منها قوياً ظافراً، معتزّاً بامانته وشرفه الوطني، ولم يحرز خصومه مرة، اكثر من خمس أصوات الحكام الذين ينظرون في الدعاوى الموجهة إليه.

ولم يقتصر الامر على براءة ديموستين مما نسب اليه ظلماً، بل ان الاثينيين ظلوا يمحضونه حبهم واعجابهم ويقيمون له البرهان على احترامهم العظيم له، برغم ما يتمتع به خصومـــه من نفوذ، وما يحيطونه به من دسائس.

ففي خريف سنة ٣٣٨ عهدوا اليه دون غيره من الخطباء برثاء المواطنين الذين استشهدوا في معركة خيرونه ... لقد أرادوا اغاظة

هذه المهمة برجل يبكي اولئك الشهداء من اعماق قلبه ، فلم يجدوا قلباً يفيض بالالم الصادق على ضحايا بلاده مثل قلبه ، وأبى آباء الشهداء واخوتهم الا ان تقام في بيت ديموستين نفسه المأدبة التي يكرمون بها ذكراهم ، اذ كانت العادة تقضي بان تقام هذه المأدبة في بيت أقرب الناس الى الفقيد الذي تُكرم ذكراه.. واذا كان لكل من اولئك المواطنين قرابة تربطه بواحد من الشهداء فان ديموستين لتصله بكل واحد منهم القرابة الوطنية الوثقى ..

وفي صيف سنة ٣٣٧ حمل ديموستين المجلس العام على اصدار قرار بانتخاب مفوضين عن كل عشيرة لمراقبة أعمال التحصين ونفقاتها ، فاختارته عشيرته وهي عشيرة الباندبونيد مفوضاً عنها . وبعد ذلك بقليل ، قدم اليه الاثينيون دليلاً جديداً على تقديرهم اياه ، بجعله أميناً على اموال الملاعب ومديراً لها .

ومن ثم لم يكن غريباً ، بالنسبة الى اصدقاء ديموستين ، الذين شهدوا بغبطة عظيمة اخفاق جميع المحاولات التي لجأ اليها خصومه للنيل من كرامته والطعن في وطنيته ، ورأوا هذه الامثلة المتعاقبة على ولاء الشعب الاثيني له واكباره اياه ، أن يطمحوا الى حمل ممثلي هذا الشعب على مكافأته من جديد كما كوفىء سنة ٣٤٠ وسنة ٣٣٨ ، على نشاطه النبيل في سبيل بلاده ، فاقترح كتيسيفون أحد اعضاء مجلس الخمسمائة ، في آذار سنة ٣٣٦ ، منحه اكليلا ذهبياً ثالثاً تقديراً لفضيلته وعصمته ، ومكافأة للخدمات التي ما فتىء يقدمها لشعبه بخطبه واعماله ، وان يسلم هذا الاكليل في المسرح العام بحضور المواطنين اليونانيين الموجودين في اثينا . فوافق مجلس الخمسمائة

على الاقتراح واتخذ قراراً به ، ولكن ما كاد هذا القرار يُعرض على المجلس العام حتى أثار عاصفة من الاحتجاج كان بطلها ايخين خصم ديموستين القديم ، اذ وقف يهاجم صاحب الاقتراح ، زاعماً انه اقتراح مخالف للقوانين ، ومؤكداً انه سيقيم عليه الدعوى مقاضياً مخالفته اياه على هذه . وما لبث ان اتهمه فعلاً بخرق القوانين السائدة ، اذ ان هذه القوانين تمنع بناء المراسيم على حجج مخالفة للحقيقة ، والحجج التي اوردها كتيسيفون في اقتراحه هي حجج كاذبة ، لان ديموستين لم يلق الخطب النافعة لشعبه ولم يخدم باعماله المصلحة العامة .

وواضح ان ايخين باقامته هذه الدعوى ، على هذا الغرار ، انما اعتزم الحكم على السياسة الديموستينية من أساسها ، وتحقيق انتصار كبير للحزب المكدوني الذي أصيب منذ سلم دياد ، بعدة هزائم واهانات ، برغم ما أصبح لرؤسائه في الدولة من نفوذ كبير . ولكنه ما لبث ان توقف عن متابعة الدعوى ، مكتفياً بمنع المجلس العام عن الاقتراع على تكريم ديموستين . ولعل الذي أوقفه عن ذلك ، الحوادث التي كانت تجري بمكدونية في ذلك الحين ...

ذلك ان فيليب كان قد انشأ بعد انتصار خيرونه ، كتلة من الدول اليونانية ، سماها العصبة الهيلينية ، ثم شرع بمهاجمة آسيا الصغرى .. ولكن اتفق في آب سنة ٣٣٦ ، أن رجلاً من حاشيته يدعى بوزانياس اعترض له بتحريض زوجته اوليمبياس وابنه الاسكندر ، لولادة ولد له من زوجته الثانية كليوباطرة ، وطعنه بخنجره طعنة أودت بحياته . فضجت اثينا فرحاً ، وحمل ابناؤها

ديموستين على راحاتهم، وأدخلوه الى المجلس العام وعلى رأسه اكليل من الزهر، فحمل هـذا المجلس على اتخاذ قرار بانشاء مذبح لبوزانياس، وهاجم السياسة المكدونية، ودعا مواطنيه الى الثورة على الاسكندر المكدوني خليفـة فيليب. وما كاد يسمع بان بارمينيون قائد الحملة المكدونية في آسيا الصغرى، وعم كليوباطرة زوجة فيليب، قد ثار على الاسكندر بحجة المحافظة على حقوق ابنها الصغير، حتى كتب اليه رسالة يعـده فيها بمساعدة اثينا له مقابل اعطائها ما اغتصبته مكدونية منها. الا انه ما عتم أن تصالح والاسكندر، وارسل اليه كتاب ديموستين دليلاً على اخلاصه له!

ثم أرسل الاثينيون نزولا عنـد الحاح ديموستين، سفراءهم الى الدول اليونانية لدعوتها الى مقاومة الملك المكدوني الجديد، فوافق بعضها على المطالبة باستقلاله، واستعدّ بعضها للعصيان. ولكن سرعان ما أخمـد الاسكندر حركات التمرد التي ثارت في وجهه، وزحف على اثينا لاخضاعها بدورها، فاستعدت المدينة للحصار، غير ان ديماد ما لبث ان اقنع المجلس بارسال وفد الى الملك المكدوني يعتذر منه لعـدم الاعتراف بسيادته، والراجح ان ديموستين لم يعترض على اقتراح ديماد مخافة ان تتعرض اثينا الى شر لم تستعدّ له، وقيل انه قد طلب منه الاشتراك في الوفد الذي كلف الاعتذار من الاسكندر فأبى، وقيل ايضاً انه قبل الاشتراك في هذا الوفد ورافقه الى منتصف الطريق ثم انفصل عنه وعاد الى اثينا.

وهكذا اعترفت الدول اليونانية للاسكندر بالنفوذ الذي كان لأبيه، ومحضته رئاسة العصبة الهيلينية التي انشأها، وارسلت جيوشها

الى الشرق تحت لوائه لمهاجمة الامبراطورية الفارسية .

وكان داريوس الثالث ، ملك فارس في ذلك الحين ، الذي أقلقه وجود الجيوش المكدونية في آسيا الصغرى ، قد حاول إثارة البلاد اليونانية من جديد ، واعطى الاثينيين مبلغ ثلاثمائة وزنة ، فرفضوا أخذه للتنصل من كل تبعة أمام مكدونيا ، ولكن هذا المال قد سلم ، كله أو بعضه ، الى ديموستين . ولم يدر أحد كيف انفقه . ولعله قد استخدمه في اثارة العصيان الذي نشب في طيبة عام ٣٣٥ فالمؤرخون يؤكدون انه قد ساهم فيه مساهمة فعالة ، وأمدّ الثائرين بالسلاح ، وحال دون مساعدة البيلوبنيسيين للاسكندر بما وزع عليهم من مال وما بذل بينهم من مساع شخصية .

وقد كان هذا العصيان أبرز حوادث العام ٣٣٥ في تاريخ اليونان ، ولكن سرعان ما عاد الاسكندر من آسيا وقمع الثورة بعنف شديد ، وزحف على طيبة فدمرها ولم يبق منها غير منزل واحد هو منزل الشاعر بيندار ... فعصف الرعب باثينا ، وخشيت أن يحل بها المصير نفسه ، عقاباً لها على القرار الذي اتخذه مجلسها لمساعدة الثائرين ، وان كانت هذه المساعدة لم تتحقق ...

وبدأت اثينا تستعد للحصار وتستقبل في الوقت نفسه جماعات اللاجئين من الطيبيين ... إلا ان الاسكندر لم يزحف عليها ، وإنما أرسل اليها وفداً مكدونياً يطالب بتسليمه عدداً من كبار الخطباء والقواد في طليعتهم ديموستين ، لأنهم في رأيه المحرضون على جميع الحركات المعادية له ، والمسؤولون عن جميع كوارث اليونان من معركة خيرونه الى عصيان طيبة ...

فحارت اثينا في هذا الطلب ، وتناقش مجلسها فيه ، واشترك ديموستين في هذه المناقشة فروى للحاضرين قصة قال فيها ان الذئاب عاهدت الرعاة على ان لا تهاجم القطيع اذا سلموهـــا الكلاب الحارسة ، فقبل الرعاة بالعهد ، ولكن لما رأت الذئاب الحظـــيرة خاليـــة من الكلاب ، هجمت على القطيع ومزقته شر تمزيق ... وشبه الاثينيين إذا سلموا الملك المكدوني الخطبـــاء والقواد الذين يطلبهم ، باولئك الرعاة الذين سلموا الذئاب ، الكلاب التي تحرس نعاجهم . وقال ان التجار ينقلون الى هنا وهناك نماذج من القمح ، ويبيعون ، بواسطة بضع حبوب ، مجموع حصيدهم ، ولئن ســـلم الاثينيون خطباءهم وقوادهم ، فانهم سيسلمون انفسهم باختيارهم .

وسئل فوسيون رأيه ، فقال ان على ديموستين واصحابه أن يسلموا انفسهم انقاذاً لوطنهم ، وعلى الاثينيين ان يسعوا بعد ذلك لحمل الاسكندر على العفو عنهم ، ولكن المجلس رفض هذا الاقتراح وقرر الامتناع عن تسليم خطباء اثينا ، وأخذ باقتراح ديماد الذي أشار بارسال وفد اثيني يلتمس من الاسكندر العفو عن خصومه أو احالتهم الى المحـــاكمة . وقبل ان ديموستين دفع لديماد مبلغ خمس وزنات مقابل سعيه هذا .

وقد استطاع الوفد الاثيني حمل الاسكندر عـــلى العفو عن خصومه . والراجح انه انما سلك هـــذا المسلك تجنباً لغضب اثينا اقوى الدول اليونانية وحاملة لواء التمرد فيها ، خلال حملته على آسيا الصغرى ، موقناً بان هذه الدولة ستأخـذ بعد ذلك التاريخ بآراء ديماد وفوسيون اكثر مما تأخـــذ بآراء ديموستين .

وانقضت السنة الاولى من سني الحملة المكدونية على آسيا ،دون ان يبدو من ديموستين وأصحابه نشاط معاد للاسكندر ، اذ حملهم المصير الذي انتهت اليه طيبة على السكوت والحذر الشديد في محاربتهم السياسة المكدونية ... وفي ربيع سنة ٣٣٣ طلب الاسكندر من اثينا مراكب حربية جديدة ، وكانت في السنة التي سبقتها قد سلمته عشرين مركباً ، فاقترح فوسيون في المجلس اجابة هذا الطلب ، ولكن ديموستين احتج عليه قائلا ليس هنالك ما يضمن ان الاسكندر لن يستخدم هذه المراكب يوماً في محاربة البلاد التي صنعتها واهدته اياها . ووافقه هيبيريد على ذلك . ولكن الخطباء الوطنيين اقتصروا على هذه البادرة السلبية ولم يتعدوها الى وضع اقتراحات عدائية .

وفي خريف هذه السنة نفسها ، تحرج موقف الاسكندر امام جيوش فارس ، فعقد اجيس الثالث ملك سبارطة علاقات ودية مع قواد داريوس البحريين ، واخذ يحرض مدن بيلوبنيسيا على تحطيم النير المكدوني ، وانشأ ديموستين يتابع تلك الاحداث باهتمام كبير وأمل جديد ، ولكنه لم يحاول اضرام نار الثورة في بلاده مخافة أن تخفق مرة أخرى وينالها من ذلك شر عظيم .. فان ذكرى دمار طيبة لم تكن بعيدة عن الاذهان ... ولم يتحول عن موقفه هذا حينما اعلن اجيس الحرب على الاسكندر ، بعد ذلك بسنتين ، وجرّ معه عدداً من الدول اليونانية ، لانه لم يجد الفرصة ملائمة للثورة ، ولم يجد الظروف مؤاتية للانتصار ... والواقع ان الملك المكدوني ما عتم ان ربح الحرب واقتص من خصومه قصاصاً شديداً .

صعود ... وانحدار

●

في تلك الأيام التي بلغ فيها نفوذ الملك المكدوني أوجـــه ، وانتصرت الفئات الموالية له في كل مكان ، واضطر رؤساء الحزب الوطني الأثيني الى التزام الحذر والصمت ، عاد إيخين الى متابعة الدعوى التي اقامها بحق كتيسيفون منذ ست سنوات ، زاعماً انه قد خرق القوانين التي تحظّر بناء القوانين على الحجج الكواذب ، باقتراحه منح ديموستين إكليلاً ذهبياً لانه كان طوال سيرته السياسية وطنياً شريفاً يخدم شعبه باقواله واعماله ، رامياً الى اصدار حكم على السياسة الديموستينية في ماضي الرجل العظيم وحاضره على السواء .

وقد بلغ عدد الحكام الذين اجتمعوا لسماع اقوال الخصمين عدة الوف ، فضلا عن الوف المتفرجين الذين توافدوا من جميع المدن اليونانية ، حتى ان المتداعيين كانا يخاطبان القضاة بقولهم : « أيها الاثينيون ! » .

وكان إيخين يريد ان يثبت في مرافعاته ، ان الثناء الذي وجهه كتيسيفون الى ديموستين إذ قال : « إنه لم يكف عن الخـــطابة والعمل من أجل مصلحة الشعب » هو ثناء كاذب ، لان ديموستين لم يخدم مصلحة الشعب الاثيني لا في الماضي ولا في الحاضر ، وانما كان

يخدم مصلحته الشخصية وحدها .. فلم يتورع من اجل اثبات زعمه عن وصم الوطني الكبير باشنع التهم ، ونعتـــه باقبح الصفات ، والقول بان جميع كوارث أثينا انما حلت بها بسببه ...

وكانت مرافعة إيخين طويلة جداً ، وبليغة جـــداً من ناحية الاسلوب الانشائي الرفيع الذي كتبت فيه ، ولكنهـا أضعف ما يكون من ناحية المنطق وتفاهة الرأي ، والمغالطة الواضحـــة ، وحشر التهم الجراف التي لا يدعمها أي برهان ، او التهم المختلقة التي كذبتها الوقائع الثابتة . وقد خلص منها الى القول بأن رجلا هذه هي سيرته ، وهذه هي مساوئه ، لا يصح ان يسمى صديق الشعب ، بل هو ، على العكس ، عدو الشعب ، وهو فوق هـذا كله ، اسيوي الأم ، فهو إذن بربري يتكلم اللغة اليونانية ، مشعوذ يعيش من كوارث وطنه الذي باعه لملك الفرس ، وليس من موارده الخاصة ، وان سلوكه قد انحط بقدر ما ارتفعت بلاغتـــه . ومن العار على اثينا ان تطربه وتكرمه بدلاً من ان تجازيه على جرائمه بصارم العقاب .

وكان من حق كل متهم في ذلك الحين ان يستصحب معه أحد علماء القانون او ينيبه عنه ، فلما جاء دور كتيسيفون ، بعد مرافعة ايخين ، قال انه ينيب عنه ديموستين ، فوقف هـــذا والقى خطاباً كبيراً ، يعدّ أجل خطبه على الاطلاق ، لما امتاز به من جزالة التعبير ، واستقامة المنطق ، ونصوع البرهان ، واسلوب سرى اليه النضج والتركز والاكتمال . وقد استهله بمناشدة الحكام التزام جانب العدل في القضية التي ينظرون فيها ، والاعتذار منهم عن اضطراره الى

التحدث عن نفسه والثناء على اعماله، ثم ردّ على تهم خصمه واحدة فواحدة ،وبرر السياسة التي انتهجها طوال عمله السياسي ، قائلا انه كان من واجب اثينا اكثر من اية دولة يونانية اخرى ان تصمد في وجه فيليب ، وأشاد بمساهمته الفعالة في هذه المأثرة الوطنية ، وعدّد الخدمات التي أداها لبلاده ، وذكّر بالاسباب الحقيقية التي أدت الى كوارثهـــا ، وافتخر بانه لم يكن من اولئك الذين ما كادوا يرون قوة الاجنبي حتى ساروا في ركابه وأصبحوا من أبواقه ، بل اختار الكفاح في سبيل وطنه ، في وقت عصيب كانت دول شبه الجزيرة تعـاني فيه ويلات الضعف والتفرقة والخيانة ، بينما فيليب المكدوني يسير بجيشه القوي المنظم من انتصار الى آخر . وقـــد رأى ان الاثينيين لا يحق لهم ان يذلوا كرامتهم ، ويدوسوا مجد أسلافهم ، بمحاكاة الشعوب الشمالبـــة التي انتظمت وراء فيليب المكدوني لمساعدته في استعباد دول هلاّدة ، وهو يعتقد بان اثينا اذ سارت بوحيه في طريق المقاومـة ، وان المجلس العام اذ أخذ بآرائه القائلة بالصمود والنضال ، قد اختارا أشرف طريق وانبل سبيل .

فالقضية التي وُضعت أمام اثينا انما كانت قضيـة شرف وطني قبل أيّ شيء آخر،وديموستين لم يجهل ذلك :« لقد كنت أعرف .. ان وطني قد ناضل دائماً في سبيل الاسبقية والشرف والسمعة الطيبة، وانه قد بذل من أجل المجد، وفي مصلحة جميع الهيلينيين ، كثيراً من المال ، وضحى بكثير من الرجال ... لقد بذل وضحى بمفرده من أجل هذه القيم اكثر من جميع الدول اليونانية» ولهذا لم يستطع

ان يرى رجلا اجنبياً يعرّض نفسه للمكاره ليصبح السيد المطلق ، ويطمح الى بسط سيادته على جميع دول الاغريق ، بينا الاثينيون الذين تذكرهم مئات الخطب والمسرحيات بما كان عليه أجدادهم من عظمة ورفعة ، يتخاذلون الى حد التنازل له عن الاستقلال الهيليني ..

لم يكن هنالك اذن غير طريق واحـــدة يجب سلوكها ، هي طريق المقاومـــة . وقد أدركت اثينا ذلك ، ومن دواعي فخر ديموستين انه قد أدرك ذلك ايضاً منذ البداية ، ودعا اليه ، ووجه شعبه نحوه ..

ويبلغ ديموستين حـداً عظيما من الجرأة اذ يقول ، حتى لو عرف الجميع كوارث المستقبل ، وتنبأ بهـــا الجميع ، لما كان على الاثينيين ان يتهربوا من واجب الكفاح الوطني ، في وقت نظر اليهم اليونانيون فيه نظرهم الى دولة قادرة على قيادتهم نحو الاستقلال المنشود ، لانهم لو فعلوا ذلك لاتهمهم اليونانيون بالجبن والتخـاذل والتخلي عنهم في معركة الحرية التي يخوضون ، ولما بقيت اثينا حتى ذلك اليوم حصناً من حصون الحرية يلتجىء اليه احرار الفكر من جميع البلدان ...

ولكن ديموستين لا يزعم انه صاحب الفضل الاول والاخير في وقوف اثينا ذلك الموقف المشرف ، فان القرارات الخطيرة التي اتخذت بشأن المقاومة ، انما صدرت عن روح المدينه الأبية الخالدة ، فالحكم على السياسة الديموستينية ، لن يكون خطأ قضائيـــاً وحسب ، بل جريمـة وطنية بحق جميع الاثينيين : « كلا ، كلا ايها الاثينيون ، انـكم لم تتنكبوا جادة الفضيـــلة والواجب ، اذ

جابهم المخاطر وخضتم المهالك ، في سبيل استقلال جميع اليونانيين وخلاصهم . تشهد بذلك مآثر اسلافكم الذين واجهوا الخطر في ماراثون ، وخاضوا أهوال الحرب في بلاته ، وناضلوا على ظهر اليم في سالامين ... ويشهد بذلك عدد كبير من أبطالكم الذين يرقدون في المقابر العامة ، فان الوطن إذ يكرم اسلافه الامجاد وابطاله الميامين ، لا يكرم الظافرين منهم وحسب ، ولكنه يكرم الذين قاموا بواجبهم الوطني في كل آن .

ومن ذا الذي يستطيع ان يزعم ان اثينا لو لم تصمد في وجه العدو ذلك الصمود الجريء النبيل ، لظلت مصوناً بعيدة عن الخطر ، لم يدخلها الفاتح فيدمرها ويستبيحها ، ولظل اسطولها الحربي سليما سيداً في البحر ...

وقد كان لبلاغة الخطيب ، وصلابة الوطني العريق ، وحرارة المؤمن الصادق ، أثرها الفعال في القضاة ، فردوا دعوى الخصين ، وحكموا بتغريمه الف دراخمة ، وحرمانه بعض حقوقه المدنية ...

ولكن الحكم الاعظم كان حكم الشعب الاثيني على الخصين ، إذ اضطره الى الهرب من بلاده الى جزيرة رودس ...

وكان ذلك اكبر انتصار احرزه ديموستين حتى ذلك الحين ...

وكان معنى ذلك ان اثينا التي غدت ، بعد تدمير طيبة وهزيمة لاسيديمون ، معقل الحرية الاغريقية ، قد رفضت الاذعان للغالب ، وأعلنت بلسان قضاتها ، موافقتها على سياسة المقاومة الوطنية ، ولم تتردد في الاختيار بين المدافع عن الوطن ، وممثل أطماع المستعمر في هذا الوطن الحبيب .

وعقبت هزيمة ايخين سنة ٣٣٠ فترة تهادنت فيها الاحزاب المختلفة في اثينا . وانصرف ديموستين الى خدمة بلاده في ميدان التموين ، لما عانى الشعب يومئذ من بؤس مدقع وارتفاع فاحش في اسعار البضائع ، ولا سيما المواد الغذائية منها ، بفعل فئة من السماسرة والمحتكرين .

وقد لجأت اثينا الى مكافحة المجاعة بانشاء صندوق خاص بشراء الحبوب ، وعهدت الى ديموستين بالاشراف عليه . وقد تبرع الخطيب لهذا الصندوق بمبلغ وزنة من جيبه الخاص ، فاقتدى به بعض الوطنيين والاجانب من المتمولين .

وكان بين الاشخاص الذين ساعدوا اثينا في ذلك الوقت العصيب ، شخص يدعى هاربال المكدوني كان يعمل مع الاسكندر ثم اختلف معه ، ثم التمس عفوه فعفا عنه ، وكلفه سنة ٣٣١ الاشراف على الاموال التي يجبيها من مدن الفرس . وقيل ان خليلة اثينية له تدعى غليسيرا ، رجته ان يساعد بلادها الجائعة فارسل اليها حوالي سنة ٣٢٧-٣٢٦ مقداراً كبيراً من القمح ، فأثارت مبرّته في اثينا موجة عظيمة من التقدير وعرفان الجميل .

ولم يلبث هاربال ان استولى على مبلغ خمسمائة وزنة من اموال الاسكندر ، في خلال انشغال الفاتح بمحاربة الهند ، ثم هرب من بابل وأنشأ جيشاً مؤلفاً من ستة آلاف جندي من الجنود المرتزقة ، واسطولاً مؤلفاً من ثلاثين مركباً حربياً ، وأقبل الى اتيكا يريد الالتجاء اليها ، فرفضت هذه قبوله بافتراح ديموستين ، رغم طمع بعض كبار الاثينيين بما معه من مال وفير . وأمرت قواها المرابطة

في الميناء بمنعه من الدخول اليها ، فلم يقاوم هاربال واتجه الى رأس تينار . فأودع فيه جيشه ، وشخص إلى اثينا بمفرده ، وذهب إلى المجلس العام في حزيران سنة ٣٢٤ ، فأعلن انه يضع نفسه تحت تصرف الاثينيين مع امواله وجنوده ومراكبه ، وأوهم الاثينيين بان جميع قواد الاسكندر يتحفزون للتمرد عليه .

وسرعان ما انقسم الاثينيون فريقين ، قسم يقول بالتعاون مع هاربال واعلان الحرب على الاسكندر ، وآخر يقاوم كل فكرة تدعو الى الحرب . أما ديموستين فقد أشار بابعاد هاربال وعدم زج اثينا في حرب لا تملك فيها من القوى ما يؤهلها لمجابهة قوى الاسكندر التي بلغ من تعاظمها انها قد أطمعت صاحبها بافتتاح العالم كله ...

ولكن بينما المدينة حائرة ، ارسلت اوليمبياس ام الاسكندر ، والقائد المكدوني انتيباتر ، الوصيين على مكدونية ، وفداً إلى المجلس الاثيني العام يطلبان منه تسليمهما هاربال والمال الذي في حوزته . واقبل فيلوكسين الذي عهد اليه الاسكندر بحكم كيليكيا وقسم من آسيا الصغرى ، مطالباً اثينا بالأمر نفسه ، فاضطرب الاثينيون ، وتخلى اكثر الداعين الى الحرب عن آرائهم السابقة ، ولم يصل المجلس الى حل مرض ، اذ كان عليه ان يختار بين اعلان الحرب ، أو تسليم رجل احتمى ببلاده . فاقترح ديموستين القبض على هاربال وحراسته حتى عودة الاسكندر ، وحفظ المال الذي معه في الاكروبول كي يسلّم معه ، وسأل هاربال عن المبلغ الذي في حوزته فاجاب انه سبعمائة وزنة .

ووافق المجلس على اقتراح ديموستين . ولكن بدلاً من ان يقبض على هاربال في ذلك اليوم نفسه ، قبض عليه في اليوم التالي، ولما احصي المال الذي صودر منه ووضع في الاكروبول ، لم يزد على ٣٥٠ وزنة .. وشاع ان المبلغ الناقص قد استخدمه هاربال في شراء ضمائر بعض ذوي النفوذ في أثينا لمساعدته على الهرب ، وقيل أيضاً ان بعض الوطنيين قد اخذوا هـذا المال ، او قسماً منه لاستخدامه في الشؤون الوطنية .

وازداد الامر تعقداً بعد عدة ايام، إذ هرب هاربال من محبسه ، ولم يلبث أن قتله أحد ضباطه في جزيرة كريت . فحمل خصوم ديموستين عليه لتهاونه في مراقبة الحراس الذين كلفوا الاحتفاظ به . لا سيما وان موته السريع قد حال ، نهائياً ، دون معرفة الاشخاص الذين استولوا على قسم من المال الذي كان في حوزته ، مما دعا إلى الشك في ديموستين نفسه . فحمل الخطيب المجلسَ على اجراء تحقيق في هذه القضية ، وصرح بانه يقبل اذا ما تبين انه أخذ شيئاً من المال ، حكم الموت دون أيّ احتجاج .

فبدأ التحقيق حالاً ، واستمر ستة أشهر كاملة وكان القائمون به يتحرون منازل المواطنين ويستجوبونهم ... وفي خلال هـذا الوقت انتدب ديموستين لتمثيل وطنه في الاعياد الاولمبية ، فطلب رسول الاسكندر في هذه الاعياد من الدول الاثينية ان تعترف بالملك الفاتح الهاً ، وأعلن ان على المدن اليونانية ان تعيد اليهـا جميع المنفيين منها ، وانـه قد أمر انتيباتر بان يخضع كل مدينة تعترض على هذا القرار . فابدت اكثر الدول موافقتها على الطلبين

أما ديموستين فلم يبد رأيه في الأمر الاول ، واقترح تأجيل البت في كلا الامرين ، وتأليف وفد من جميع الدول اليونانية لمفاوضة الاسكندر .

فلما عاد ديموستين الى وطنه استقبله قسم من المواطنين بفتور ، لأنه بقبوله مبدأ المفاوضة مع الملك المكدوني حول شأن من شؤون اثينا الداخلية قد اعترف له بحق التدخل في هذه الشؤون . فالقى امام المجلس العام خطاباً قال فيه ان على اثينا ان تفاوض الاسكندر بشأن المنفيين وتحمله على التراجع عن قراره ، ولكن عليها ان تعترف بالوهيته مادامت بقية الدول اليونانية تريد الاعتراف له بذلك فاعترض بعض الخطباء على رأيه اعتراضاً قوياً ، وأيده فيه خطباء آخرون ، وقال أحد هؤلاء : « احذروا من ان تخسروا الأرض لحرصكم على السماء ! » وانتهى المجلس إلى تبني اقتراح ديموستين . ولكن عدداً كبيراً من المواطنين ظلوا يحملون على الوطني العظيم زاعمين انه قد تهاون كثيراً في المحافظة على حقوق البلاد .

وفي شهر كانون الاول سنة ٣٢٤ انتهى التحقيق في قضية هاربال ، وأصدرت اللجنة التي قامت به بياناً عينت فيه اسماء القواد والخطباء والحكام الكبار الذين استولوا على قسم من اموال ، وفي طليعتها اسم ديموستين ... ولكن اعضاء اللجنة لم يقيموا أيّ برهان على هذه التهم ، ولم يبينوا السبيل التي انفق فيها كل من المتهمين المال الذي استولى عليه .

وما لبث الشعب ان عين بطريقة الاقتراع برفع اليد ، عشرة

خطباء لملاحقة المتهمين قضائياً ، وكان بين هؤلاء الخطباء عدد من السياسيين الرجعيين وهم خصوم ديموستين القدماء المعروفون بميولهم المكدونية ، وعدد من الوطنيين الصادقين المتحمسين وهم خصومه الجدد الذين زعموا انه قد تهاون في المدة الاخيرة في المحافظة على حقوق بلاده .. فاتفقوا جميعاً على مهاجمته بعنف ، ولم يكتفوا بتأييد بيان لجنة التحقيق القائل بانه قد استولى على مبلغ عشرين وزنة من مال هاربال ، بل زعموا ايضاً انه قبض اموالا طائلة من الملك المكدوني وملك الفرس ! الا أن هذه المزاعم جميعاً لم تؤيدها حجة واحدة ، ولم يثبتها اولئك الخصوم ببرهان ، وكان اعتمادهم كله على بيان لجنة التحقيق الذي لم يورد هو نفسه دليلا ماديا واحداً يثبت صحة ما جاء فيه .

ولكن عبثاً نفى ديموستين عن نفسه هذه التهمة ، وعبثاً قام انصاره بحملة واسعة النطاق لتبرئة ساحته وانقاذ سمعته ، فقد أبى القضاة الذين نظروا في تلك الدعوى ، وكان عددهم الفاً وخمسمائة شخص ، الا ان يجرّموه ويحكموا عليه بغرامة قدرها خمسون وزنة ، الا اننا لا ندري عدد الاصوات التي أدانت الرجل الكبير .

ومما يستوقف الانتباه أن العقوبة التي أنزلت به ، كانت ادنى العقوبات التي يمكن صدورها في مثل هذا الشأن ، اذ كان الشرع يقضي ، اذا ما ثبت عليه الجرم الذي أسند اليه ، اما باعدامه او بتغريمه مائتي وزنة أي عشرة اضعاف المبلغ الذي قيل انه قد استولى عليه . فهل يعني تخفيف العقوبة على هذا الشكل ، ان اولئك القضاة لم يكونوا مقتنعين كل الاقتناع بصحة الحكم الذي أصدروه؟

ويرى اكثر المؤرخين ان العوامل السياسية والأحقاد الشخصية، هي التي وجهت القضاة نحو اصدار هذا الحكم دون دليل مادي يعتمدون عليه، كما وجهت اعضاء لجنة التحقيق قبلهم في هذه الوجهة نفسها. ويعتقد آخرون ان ديموستين قد قبض فعلا مبلغ عشرين وزنة من مال هاربال، ولكنه قبضها بمعرفة رجال الحكم وانفقها في مشاريع الدولة السرية، واذا كان قد امتنع عن التصريح بهذه الحقيقة، فانما فعل ذلك محافظة على سمعة الدولة الاثينية وعلاقتها مع الاسكندر. ومن المؤرخين من يرى ان الحكم على ديموستين وبقية المتهمين كان لا بد منه، لانقاذ اثينا من غضب الملك المكدوني، ومن تأدية ذلك المبلغ المفقود مكرهة صاغرة.

وهكذا اشتركت عوامل عدة لا يزال اكثرها غامضاً، في الحكم على ذلك الوطني الكبير، برغم الخدمات العظيمة التي أداها لها، ورغم مناداته ببراءته حتى اللحظة الاخيرة، ومطالبته القضاة، من غير طائل، ببيان حجة منطقية واحدة تثبت التهمة التي نسبت اليه.

وثمة سؤال يفرض نفسه هنا فرضاً: ان خطب متهمي ديموستين كانت تجيش بغضاً له وحقداً عليه، ولم يدع أصحابها تهمة الا الصقوها به، بحيث لا يقبل المنطق السليم الاعتقاد بانهم يترددون لحظة واحدة في اعلان أية وثيقة تجرّمه أو برهان يثبت التهمة عليه.. وليس تخلّفهم عن ذلك الا دليلاً جازماً على ان اولئك القضاة قد حكموا عليه بدون الاعتماد على أية وثيقة أو برهان من هذا القبيل.

وقصارى القول ان قضية هاربال، قد ظلت مكتنفة بالغموض

وان التهمة التي الصقت بديموستين لم تثبت قط ثبوت اليقين ، ولم يعرف المؤرخون لها مؤيداً من مسلكه الطويل في قيـــادة أثينا وتوجيه نضالها العظيم ، ولم يستطع مئات الباحثين الذين عالجوها ، اكتناه سرها ومعرفة الأثر الذي كان لديموستين فيها ، والظروف او الشروط التي سمح لنفسه بموجبها بالحصول على قسم من ذلك المال او بتسلمه ، ان كان قد فعل ذلك حقـــاً ، ولكن اكثر هؤلاء الباحثين قد أنكروا ان يكون ديموستين قد قبـــل الرشوة من هاربال أو من غيره ، لما عرف به طول حياته الحافلة بجلائل الاعمال من صدق العاطفة الوطنية وعزة النفس ونبل الضمير .

وأياً كانت الحقيقـــة ، فان القضاة الذين نظروا في قضيته لم يقتنعوا ببراءته ، أو انهم خضعوا لعوامل كانت أقوى لديهم من عامل الانصاف ، فحكموا بتغريمه خمسين وزنة ... ولم يدفـــع ديموستين هذه الغرامة ، اما لأنه لا يملك المال الكافي لتأديتهـــا ، وأما احتجاجاً على هذا الحكم .. فالقي القبض عليـــه كما يقضي الشرع السائد .. ولكن سرعان ما هرب من السجن ، وقبل ان سجانيه هم الذين أفسحوا له مجال الهرب ، فاقام في جزيرة ايجين ثم في تريزين ، غير قانط من العودة إلى وطنه للمساهمة في توجيهه نحو الحرية والخير .

الغروب

•

لم تمض شهور معدودة على مغادرة ديموستين وطنه ، حتى توفي الاسكندر في الثـــالث عشر من حزيران سنة ٣٢٣ في بابل تحت وطأة الحمى ، فهبت اثينا من جديد لاستعادة استقلالهـا وحريتها ، وتزلزلت مكانة خصوم الخطيب القدماء صنائع الحكم المكدوني ، وقبض على بيتياس أحد متهميه فهرب من اتيكا واستجار بانتيباتر الوصي على مكدونيا ، وصدرت بحق ديماد عـدة احكام وانتزعت منه حقوقه المدنية .. أما خصوم الوطني الكبير الجـدد ، اولئك الوطنيون الذين اتهموه بالتهاون في خدمـــة بلاده في السنوات الاخيرة ، فسرعان ما ادركوا ظلمهم له ، فتصالحوا معه ، بينما كانت جيوش اثينا تزحف على تساليا وتيرموبيل ، وسفراؤهـا يطوفون انحاء اليونان يدعونها الى الاشتراك في حرب الاستقلال .

وأصدر المجلس العام قراراً بدعوة ديموستين الى بلاده ، فعاد الوطني العظيم الى اثينا كما يعود الأبطال الظافرون ، وبلغ الاثينيون في تكريمه أقصى ما يتاح لعظيم ان يكرم على الاطلاق ... وخرج لاستقباله ، كما يقول بلوتارك ، القضاة والحكام والكهان ، وجميع المواطنين الآخرين ، حتى قال ديموستين ان ذلك اليوم هو أسعد

أيام حياته ..

وسقطت عن ديموستين بهذا الاستقبال الحار ، العقوبة المعنوية ، ولكن بقيت العقوبة المادية التي لم يكن الشرع ليجيز الغاءها ، فلجأ المجلس الى حل يحفظ مصلحة الخطيب وحرمة القانون ، اذ كان من الشائع أن يمنح الرجل الذي يقدّم الضحية لمذبح الاله زيوس ، مبلغاً من المال ، فعهد الى ديموستين القيام بهذه المهمة مقابل « خمسين وزنة » !

وكان الاثينيون يتابعون في خلال ذلك ، الحرب التي سميت « حرب ديموستين » .. والواقع انه اذا كان هيبيريد وليوستين وغيرهما من الزعماء الوطنيين الجدد ، هم الذين أعلنوا هذه الحرب اثناء غياب ديموستين عن اثينا ، فان الوطني الكبير ما فتىء يحرض عليها ، ويهيء لها النفوس ، ويعدّ لها العدة اللازمة ، منذ خمسة وعشرين عاماً ..

ولكن هذه الحرب التي بدأت بالانتصار اللامع ، ما لبثت بعد مقتل القائد الاثيني ليوستين ، واحتشاد القوى المكدونية من كل مكان ، ان انتهت في آب سنة ٣٢٢ بهزيمة الكتلة اليونانية ، واقتراب جيوش انتيباتر من اتيكا .. فبدأت الدول الاغريقيه المحاربة ترسل وفودها الى القائد المكدوني لمفاوضته في الصلح .. واستعاد الحزب المكدوني في اثينا نفوذه القديم .. فأعيدت الى ديماد حقوقه المدنية وأرسل مع فوسيون لطلب الهدنة .. فاعلن انتيباتر استعداده للتوقف عن مهاجمة اتيكة على ان تستسلم له دون قيد أو شرط .. فأذعنت اثينا لذلك برغم معارضة الوطنيين ، واعلنت

استعدادها لتنفيذ مطالب الفاتح ، فأملى عليها الشروط التي قضت نهائيا على استقلالها ونظامها الديموقراطي .. إذ حظر عليها ممارسة نظامها السياسي التقليدي ، وأقام في احدى مدنها حامية مكدونية ، وطلب تسليمه الزعماء الوطنيين الذين عرفوا بنزعتهم الاستقلالية ومكافحتهم الاستعباد المكدوني ، وفي مقدمتهم ديموستين وهيبيريد وهيميروس واريستونيكوس . فوافقت اثينا على ذلك ... واستصدر ديماد قراراً باعدام هؤلاء الوطنيين اللامعين ، وأرسل انتيباتر رجلاً ماردا من رجاله يدعى ارخياس ، مع طائفة من جنود تراقية ، للقبض عليهم .. فاعتقل الثلاثة الأخيرين في هيكل أجاكس ، وارسلهم الى انتيباتر فقضى عليهم ..

ولاذ ديموستين بهيكل فوسيدان في جزيرة كالوري ، وكان حرماً مقدساً ، فحاصره أخياس فيه ، ولما يئس من النجاة جلس أمام منضدة في الهيكل كأنه يكتب .. وكان من عادته حين يفكر ويُعِدّ خطاباً ان يعض على قلمه بنواجذه بين حين وآخر .. ففعل ذلك كعادته .. ولكن القلم كان يحتوي هذه المرة سماً ... فغطى الوطني العظيم رأسه بثوبه ، وانحنى على المنضدة التي أمامه ، وظل كذلك حتى سرى السم في جسده .. ثم نهض يتلوى أمام مذبح الآله فوسيدون ، وما لبث ان سقط على الأرض ميتاً .

كان ذلك في اليوم الثاني عشر من تشرين الأول سنة ٣٢٢ وديموستين يومئذ في الثانية والستين من عمره ..

وكان هذا العام بدء تاريخ جديد في حياة اثينا ، اذ انطوت فيه الصفحة الاخيرة من أمجادها ، وفقدت استقلالها السياسي

ونظامها الديموقراطي العريق ...

*

لم ينجح ديموستين اذاً في أن يعيد الى وطنه مجده الغابر ، بل انه لم يستطع ان يدفع عنها العدوان ، ويحمي حريتها واستقلالها وتراثها القديم ، وفي الوقت الذي كانت تنطفىء فيه حياته العظيمة كان النظام الديموقراطي يزول من اثينا وتزول معه الحقوق السياسية والاجتماعية التي كان يؤمنها لقسم غيرقليل من المواطنين .

ولكن هل كان اخفاق ديموستين ، دليلاً على ان نضاله العظيم كان جهداً عقيماً وعبثاً لا جدوى منه ولا غناء فيه ، كما قال نفر من المؤرخين ؟

في اعتقادنا ان المعركة التي خاضها هذا الوطني الكبير ، لم يكن اخفاقها منتظراً منذ البدء لان ظروف اثينا المعنوية والمادية لم تكن تحتم هذا الاخفاق ، اذا استخدمت مواردها في سبيل الدفاع عنها ، ونشط ابناؤها الى العمل والجهاد ، وتوطدت العلاقات الودية بينها وبين بقية الدول الاغريقية ، كما أراد ديموستين . فان دولة تتمتع بمثل القوى التي تتمتع بها اثينا في ذلك الحين ، كان في وسعها ان تقاوم العدو الذي يريد استعبادها واذلالها ، مقاومة مجدية فعالة ، اذا أحسنت تعبئة تلك القوى وتنظيمها واستخدامها في حاجات الدفاع ، بل كان ذلك واجباً عليها لا ينبغي لها التفريط فيه .. وليس الاستسلام والتخاذل في مثل هذه الحالة غير ضرب من العار والهوان لا يرضاه شعب شريف . فمعركة ديموستين إذن ، مهما كانت نتائجها ، هي أشرف معركة يخوضها امرؤ في حياته ...

لأنها معركة الوطنية الصادقة مع الاستعمار البغيض .

وقد رأينا أن ديموستين لم يكن بالوطني الحمس الذي يجري مع العاطفة الهوجاء ، وينصب أمام وطنه هدفاً دون أن يرسم له الطريق التي تفضي اليه لأنه هو نفسه يجهل هذه الطريق ... بل كان الوطني المفكر الذي يدرس الامور ، ويقدّر النتائج ، ويعالج النقائص بالنضج الرصين والتوجيه الحكيم ، فتأتي آراؤه وليدة التفكير المتسلسل الدائم وليست بالنزوات التي ما تلبث أن تطرأ حتى تزول . وقد وضع لوطنه خططاً لو لم يحل دون تحقيقها تفسخ الطبقة الحاكمة وخيانة نفر من أبنائها ، وتقاعس غيرهم من المواطنين الذين أفسدهم الترف وقعد بهم الجمود فكانوا يشترون السلامة باي ثمن كان ... لأدت به إلى غير المصير الذي انتهى اليه .

لقد كان يرى أن قوى بلاده تؤهلها للدفاع عن حريتها واستقلالها ، وكان يرى أيضاً أن الاوضاع الخارجية المحيطة بها مؤاتية لذلك الدفاع ، لأن عدداً كبيراً من الدول الأغريقية كان على استعداد لمقاومة مكدونيا إذا بدا له من أثينا ما يشجعه على المقاومة ويحفزه إلى الكفاح ، ولأن لفيليب المكدوني أعداء كثيرين يتربصون به وينتظرون الظروف الملائمة للانقضاض عليه ، ولأن النظام الاستبدادي السائد في مكدونية ، والذي فرضته على الشعوب التي استعبدتها ، يؤلف ثغرة كبيرة في قوى الملك المكدوني ، بينما يؤلف النظام الديموقراطي السائد في أثينا عاملاً رئيسياً من عوامل القوة الراسخة الاصول .

ولم يكن ذلك الخطيب الكبير محدود النظر ضيق الأفق لا

يري غير أثينا وحدها ، فهو في خلال تفكيره في وطنه الصغير الذي يحبه أعظم الحب ، ويرى ، فخوراً ، ان الميراث الأغريقي والعبقرية الأغريقية قد صارا اليه ، كان دائم التفكير في وطنه الكبير .. في بلاد اليونان جميعاً .. ويعتقد بحق ، ان حرية أثينا مرتبطة الى حد كبير بحرية الدول اليونانية الأخرى .. فيدعو اليونانيين الذين خضعوا لنير الفاتح الى الثورة عليه ، ويحذّر الآخرين من الخطر الذي يهددهم ، وينادي هؤلاء واولئك الى الاتحاد والتعاون والكفاح المشترك في سبيل استقلال هلاّدة ، ويشيد باسلاف الاثينيين ، اولئك العظام الذين كانوا يعملون دائماً لمصلحة الهيلينيين أجمعين ، ويحث مواطنيه على اقتفاء آثارهم ، مذكراً إياهم بأن من واجباتهم ، بل من امتيازاتهم ، بالنسبة الى الميراث الذي ورثوه عنهم ، انقاذ اليونان باسرها .

ومن الحق أن نقول ان الملك فيليب كان يدعو ، هو ايضاً ، الى توحيد دول اليونان ، ولكنه كان يريد توحيدها تحت لوائه ، واخضاعها لاستبداده ، واحلال أنظمته الجائرة محل أنظمتها الديموقراطية ، ومعاقبة المتخلف منها عن هذا الاتحاد بالتدمير والابادة ! بينما أراد ديموستين تحقيق هذا الاتحاد في ظل الحرية والديموقراطية وحق الشعوب في تقرير مصيرها . ومن هنا ينبغي النظر ، لمن يحب المقارنة بين الملك المكدوني والخطيب الأثيني ، ويزعم أن الاول قد عمل على انشاء الوحدة اليونانية ، بينما سعى الثاني لتمزيقها . فالسياسة الديموستينية بالنسبة الى وحدة اليونان ، كانت تقوم على احترام حقوق المدن والافراد ، وهي بمجموعها

أقل ضرراً وأكثر ملاءمة لمصالح اليونانيين ولصيانة تراثهم العريق..

ويجب الا ننسى ما عانته اليونان بعد خضوعها لمكدونية ، وفي خلال الحروب التي نشبت بين خلفاء الاسكندر بعد نهاية القرن الثالث ، من خراب ودمار ، وما عاناه اهلها من سبي وتشتيت . يضاف الى ذلك ان التشريع المكدوني الذي طبق في جميع البقاع التي بسطت مكدونية سيطرتها عليها ، قد كان اكثر تأخراً من الشرع الاثيني – الذي كان قد اصبح نموذجاً لبقية الدول – بالنسبة الى القسم الاكبر من المواطنين. وقد كان هذا الشرع الاثيني لا يعترض على تحرير العبيد ، ويؤمن لهم ضمانات عديدة لدى اسيادهم ولدى الدولة نفسها . بينما وضع الميثاق المعقود بين بعض الدول الهيلينية الخاضعة للملك فيليب ، قيوداً جمة على تحريرهم ، وجاراه في ذلك تشريع الاسكندر . وليس من يجهل ما لهذه الناحية من أهمية في الحروب التي كانت تدور عهد ذاك والتي كان جميع الأسرى فيها يتحولون الى أرقاء ويباعون في اسواق العبيد !

وجملة القول ان ديموستين حين حاول سد الطريق في وجه الفتح المكدوني ، وبشر بمبدأ المقاومة ، انما صدر عن عاطفة وطنية مقدسة ، ودافع عن قضية شريفة عادلة .. وليس ينتقص من عظمته ومن اهمية كفاحه ، ما انتهت اليه جهوده من خسران .. ولنذكر دائماً قوله الحكيم : ان الوطن اذ يكرم اسلافه الامجاد وابطاله الميامين ، لا يكرم الظافرين منهم وحسب ، ولكنه يكرم الذين قاموا بواجبهم الوطني في كل آن !

أما مكدونيا فقد قتلت اليونان .. لقد أذلها الملك فيليب ،

ثم شتتها الاسكندر في شعاب آسيا ، فكانت اليونان بعد ذلك في الاسكندرية ، ثم في سلوقية ، ثم في انطاكية ، ثم في برغامة .. وعاشت على ضفاف النيل ، ودجلة ، وهندوس ، وفي كل مكان آخر ، ما عدا اليونان نفسها !

ومن يدري ؟ لعل هذه الكارثة التي حلت باليونان قد أفادت العالم ، بل انها قد أفادته كثيراً ما في ذلك ريب ، لانها نشرت الحضارة الاغريقية في افريقية وآسية ، وأزالت التمييز العنصري بين الاغريقيين و « البرابرة » . ولكن من ذا الذي يستطيع الموازنة بين ما كسبته البشرية وما خسرته في هذا وذاك ؟!

مراجع الكتاب

Démosthènes : Discours.
Pseudo - Démosthènes : Discours .
Plutarque : Alexandre , Camille , Démétrius , Démosthènes etc..
Pseudo - Plutarque : Vie des dix Orateurs .
Paul Cloché : Démosthènes et la fin de la Démocratie Athénienne.
H. Francotte : Histoire Politique de la Grèce Ancienne.
C . Barleagallo: Le déclin d'une civilisation ou la fin de la Grèce Antique.
G. Glotz et R. Cohen : Histoire Grecque T. 3
فيليب فان نس مَير : التاريخ العـــام
جرجي ديمتري سرسق : تاريخ اليونان
الدكتور نقولا فياض : الخطـــابة
سلامة موسى : أشهر الخطب ومشاهير الخطباء
لويس عوض : ديموستين ، جريدة «رابطة الشباب» العدد ٥

فهرست

قليل من التاريخ	٣
مجد اثينا	١٤
الانهيار	٢٢
ديموستين	٢٨
بدء الكفاح	٢٧
الخطر المكدوني	٤٥
النهوض	٥٠
معركة على ابواب اثينا	٧٦
العصيان	٨٥
صعود .. وانحدار	٩٣
الغروب	١٠٤
مراجع الكتاب	١١١

٨٩ ـ ٣ ـ ٤٨

885.6:Q614dA:c.1
قلعجي، قدري
ديموستين بطل اثينا
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031484

American University of Beirut

B
D38h A

General Library

885.6
Q614dA
C.1